

قصة الحضارة

ول وَايريل ديورانت

الإصلاح الديني

مُراجعة
عَلَمِي أَدَهَم

تَرْجَمَة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الثَّالِث من المجلد السَّادس

٢٤



تونس



بيروت

الكتابُ الثاني

الثورة الدينية

١٥٦٤ - ١٥١٧

الفصل السادس عشر

لوثر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا

١٥١٧ - ١٥٢٤

١ - تيتزل

أصدر البابا ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر مذكوك الغفران . ومما يؤسف عليه - وإن كان له مايسوغه - أن الإصلاح الدينى فرض عليه أن يحارب فى عهد سلطة بابوية جمعت فى روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مدينتى ، التى غدت عصر النهضة فى فلورنسا ، وكان بحائى وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامى والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق فى وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذى يشيع الهجة فى النفوس .، وأضحى مثالا للسعادة فى مدينة كانت منذ قرن خراباً بليقاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق إلا قليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هى موضع نظر . وكان متساهلاً فى العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد فى كتاب « الثناء على الطيش » لارازموس ، وقد عمل إلا فى فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذى منحت بموجبه الكنيسة فى عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء - الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية - إلى الأقلية المتساهلة وإن تركوا عتيدة - الجماهير الراضخة دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفي اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثاني وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضعيفة التي فكر يوليوس في إنشائها وشرع في ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لابد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر في مهده . ولعله عرض في شيء من التردد أن يمنح في عام ١٥١٧ صاك غفران لكل من يسهم في نفقات تكملة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء : فوافق على أن يحتفظ هنري الثامن بربع الأموال التي تجمع من إنجلترا وقدم قرصاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) في مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذي يجمع في فرنسا ، أما ألمانيا فقد قبلت بمعاملة أقل كرمًا ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسميليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وقوض آل فوجر في أن يأخذوا من الأموال التي تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجي لكي يدفعها للبابا لتثديته في منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كهراء أساقفتها في عشر سنوات (١٥٠٤ — ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت لبعضها من الدفع مرة ثالثة — ووافق ليو وقتذاك على أن أن يتولى رئيس الأساقفة الشاب توزيع صكوك الغفران في ماجدبرج وهالبرشتادت وفي ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظي

ألبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التي تضم الأموال^(١) .

وكان جوهان تيتزل وكيل ألبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكانى اكتسب مهارة وشهرة فى جمع المال . وكان عمله الرئيسى منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلتقى عادة فى هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأتقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صكوك الغفران عالية فوق وسادة من الخمل أو وسادة مذهبة فى حين تقرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تيتزل^(٢) بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صكوك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون فى بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقي من آلام مقدسة وإنا بتقويض منه ومن رسوله المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلى فى هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى لثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفبك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العماد ، ولهذا فإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس^(٣) .

وكانت هذه الصيغة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تنفق مع المفهوم الرسمى

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صك الغفران لروح في المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكي : ليس من شك في أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشيء سوى تقديم المال للحصول على صك غفران للميت في غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صك الغفران يمكن أن يمنح لأى روح محنة ويكون له أثر لا يخيب . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود في الخزانة حتى تغفر الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأيا غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة (٤) .

وسمع مايكونيوس ، وهو راهب فرنسيسكانى ربما كان معادياً للدومينيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعترزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه نذ للمسيح » . وقد يكون في هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يشهده تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو في الشائعة التى ذكرها لوثر (٥) في ارتياب والتي استشهد بها تيتزل عند ما قال في هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فلن صك الغفران كفيلاً بأن يمحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكنهوتية في هال بأنهم لم يسمعوها القصة قط (٦) . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضي فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين في كنيسة قصره بفيتنبرج (٧) ، واتخذ التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيرها كما حصل على صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة في تورجاو ، وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوي (٨) ، ومهما يكن من أمر فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذي جمع في إمارة سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية ضد الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عند ما تتجسم الحرب الصليبية في صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا قط احتفظ فردريك الحكيم بالأموال واستخدمها في بناء جامعة بفيتنبرج (٩) . وحرّم في أرضه وقتذاك التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا بالهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ، بيد أن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالي فيتنبرج عبروا الحدود للحصول على صك الغفران ، وجاء عدد من المشتريين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت في الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض ، وتراعى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر وهكدا بخلد لإسمه في التاريخ .

(*) في عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأغنى ، ويشمل ليهنجز ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الأبرشية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكاناً ويشمل فيتنبرج وفيهار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطوري وعرف باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرسية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر في حركة الإصلاح الديني .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم *Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum* « بحث في بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التى تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفقة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية فى غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا فى إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هى أن سلطة البابا فى تحرير الأرواح من المظهر أو فى تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتى لا تصل إلى أبعد من القبر — ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهى قد تسمع وقد لا تسمع . (الرسائل : ٢٠ — ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً فى خزينة الفضائل التى كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعفى البابوات من مسئولية مبالغت الوعاظ ، ولكنه أردف فى خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقذوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية اللامحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملمحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفتدى . . . عدداً من الأرواح من أجل المال التعس الذى يبنى به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ — ٨٢) .

وفي وقت الظهيرة في اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧
ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر في فيتنبرج ، وفي
اليوم الأول من نوفمبر في يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك الخلفات
المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولاشك
أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل
المتحدين ، كانت عادة قديمة في جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى
استخدمه لوثر في لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحة
النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة في تسليط الضوء عليها سوف تناقش
الآراء التالية في فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب
واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم في ذلك المكان . ولهذا يرجو
من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفويّاً أن يفعلوا هذا
بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكي
يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل
إلى ألبرخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح
الدينى في جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ - تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ،
في مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان
أبوه هانز رجلاً صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت
أمه امرأة خجولا متواضعة تكرر كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما
مقتضداً . وعمل هانز فلاحاً في موهراتم اشتغل بالتعدين في مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد في أيسلبيين في اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة بحرية لتقويم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظلّا زمناً طويلاً ينامب كل منهما الآخر العداء ، وفي مناسبة أخرى جلدته أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مذكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التي عشتها معهما هي التي دفعني إلى أن ألبأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً » (١٠) . وليس من شك في أن صورة الرب التي نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطالب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا في النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سمرة وغمفارية وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أسهم دين قام على الفرع في بيت يحتفل بالتأديب الصارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة في مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجلد فيها مارتن خمس عشرة مرة في يوم واحد لأنه أخطأ في إعراب اسم . وعند ما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية في ماجدبيرج ، وفي سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج في أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريح . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أتمن للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هاء نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفي هذا الجو الصحي استكمل السحر الطبيعي للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشراحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة في أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمي لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ : وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة » (١١) .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسيكية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتبط عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفزع والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحياة إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لقن فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شئ شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عندما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لقن له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الخاطئين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد التمسك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥١٥) واجهته عاصفة رهيبة ، ولمع البرق حوله ، وأصاب الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ وخيل للوثر أن هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطيع أن يحيا حياة ينصرف فيها إلى التبعيد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف يصبح راهباً .

وكأى هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختر واحداً عرف بالإخلاص فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه جميعاً وشرب وغنى معهم فى حفل قال لهم لأنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم التالى استقبال فى خلية بدير كمبتدئ فى الرهبة ، وقام بأحق الأعمال فى تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن نوم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضجع بارد وصام وعذب نفسه ، أملاً فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب أن يدخل اللجنة عن طريق الرهبة فلأنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال » (١٢) . وفى إحدى المناسبات عند ما اختفى عن الأعين بضعة أيام اقتحم أصدقائه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض غائب الوعى ، وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥١٦ أقسم قسماً مغلظاً بأن ياتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفي مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملا في أن يجتاز الثغرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شيء . ثم وقعت في يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي . وتساءل قائلا : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهي وقلبي جريح » (١٣) . وأولى جوهان فون شتاوبتز ، وهو قسيس إقليمي من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبوياً ، وأمره أن يستبدل بالتقشف قراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية — وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة — بالنسبة لأي فرد .

وفي أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت في رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات في بطاء إلى العقيدة التي تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى — أي يرجع إلى الصواب وينجو من النار — لا بالأعمال الطيبة التي لا يمكن أن تكفي أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته : بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر في تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه — تلك هي القدر — أن الله قدر حتى قبل الخلق أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزج بالباقي في جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتضحية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أمله الأساسي في الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين في فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيرتز ، وعين في وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت في الجامعة . وكانت فيتنبيرج عاصمة الشمال — وقلما كانت محل إقامة — لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتترونها إلى التهذيب منعصمون في العردة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب في ساكسونيا التي كانت تعد أعظم مقاطعة في ألمانيا يغرم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت الحمجية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثالياً وقتذاك لأنه أرسل في أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما في مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينيين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أي حاج ، وانحنى في إجلال أمام مخلفات القديسين وصعد على السلم المقدس *Scala Santa* وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الروماني ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلائجلو ومئات غيرها قد بدأوا في تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح بجلى على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الانحلال الخلقى الذي كان شائعاً وقتذاك في المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد في ذكرياته التي تتسم بالخيال المتوقد ، والتي تخطر له أحياناً في أحاديثه حول مائدة الطعام في سن الشيخوخة :

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتى عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت العشاء» (١٤) . ومن المحتمل أنه لم يتيسر له الدخول فى أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة مباشرة بأخلاقهم المنحلة التى لا شك فيها .

وارتقى بسرعة فى المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأسقف فى طائفته . وألقى محاضرات فى انكتاب : «تقدس» ، وقام بالوعظ بانتظام فى كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل فى وظيفته بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكي مشهور : « إن خطباته الرسمية تنم على اهتمام شديد بالدين ساورتهم الشكوك ونفيض بعطف رقيق على الآثم وتنفصيح عن لمساة عميقة من الشعور الدينى والرأى العملى النادر وإن كانت لم تخل من تشويه زعمائح لها اتجاهات مخالفة للعقيدة : وعند ما اجتاحت اطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على الرغم مما أبداه أصدقاؤه من قلق» (١٥) . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ - ١٥١٧) تحولت آراؤه المبدئية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة . وبدأ يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس فى أرفورت . وفى عام ١٥١٥ عزا ما أصاب العلم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قازوا للناس كثيراً مجداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزلة ، واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيلد ما بها من التقوى الصوفية رأيه فى اعتماد الروح الكلى فى الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه أعدها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألماني Theologia Germanica » . ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء ، وبدأ فى مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد فى الرسالة الأولى ليوحنا شبيه بالبابا (١٦) . ودعاه الدوق جورج صاحب ألبرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ في درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشكا الدوق من أن مثل هذا التشدد في الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب » (١٧) ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته في الرسائل الخمس والتسعين التي علقها في كنيسة فيتنبرج .

٣ - الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التي حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر في عام ١٥١٧ كان راهباً حليق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم إلى حين ، وله عينان واسعتان يمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح في هدوء لا في لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلي شيئاً من المهرطقة ولكنه تصحح لوثر في لطف ألا يكتب شيئاً آخر في الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفي مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبتز أن أمله الحقيقي هو أن يقضى حياته في عزلة هادئة ولكنه كان يخدع نفسه فقد كان تلذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة في ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقابها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، في « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأى شيء ولم يقدم أى اعتذار بل « إنه أصدر في بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات دقة» (١٨) . وعند ما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة في ساحة السوق — وهو لإجراء استهجنه لوثر في جنبل . ورد على تيتزل في « عظة حول صكوك الغفران والرحمة » ، وختمها بقوله في تحد لا نظير له : « إذا كنت هرطيقاً في نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التي أذكرها فإنني لا أبالي كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل » (١٩) .

وأمطر جاكوب فان هوجسترايتن الكولوني ، لوثر وأبلا من عبارات التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إيلك ، نائب مدير جامعة انجولشتادت كتيباً باسم Obeilsci (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه لوثر بنشر « السم البوهيمي » (هرطقات هس) . وتقويض النظام الإكليريكي بأسره .

وفي روما نشر سيلفستر بريياس ، رقيب الأدب البابوي ، حواراً « يؤيد فيه سيادة البابا المطلقة بالفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة في صكوك الغفران ليس لها سند ولا عليها دليل » (٢٠) .

ورد لوثر في كتيب اسمه Resoluciones قرارات (ابريل عام ١٥١٨) وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلي وإلى البابا — مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة في كلتا الحالتين وتحدث النص في رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن في عالم الكنيسة رجالاً يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمسدوا يد المعونة للكنيسة . . . وها نحن أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هوليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة لكل آذان الناس الطيبين ، وإكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً في مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن يحكم في أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا في هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثاني وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها — نعم روما ، أكثر من الكل ، تسخر الآن من الناس الطيبين ، ترى في أى جزء من العالم المسيحي غير روما ، حصن بايلون الحقيقي ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد ليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداسك تذلي وخضوعي بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك في نظرك . إني سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم في جسدك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت » (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات *Resoluciones* كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكوني أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن المخلفات المقدسة وعن الحجج وأنكر فضائل الأنديسين الزائدة وبذلك كل الإضافات التي قام بها البابوات في القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدراً له أهميته للدخل البابوي ولما كان ليو في حيرة لا يدرى كيف يعول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الخبر الأعظم الذي استبد به القلق ، والذي لم يعبأ في مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضجة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتلك على عاتقه واستدعى الوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت في أدب واعتقال نفسه في دير روماني وسرعان ما ينساه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإجبارى لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يحل لوثر الذى كان له الفضل فى نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلاً عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب » (٢٣) .

وفى هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابى الإمبراطورى إلى الاجتماع فى أوجسبورج للنظر فى طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعونة فى تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإكايروس (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثنى عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أرباب البيوت يجب أن يجهزوا رجلاً ورفض المجلس النيابى بل أنه على النقيض سيجل مرة أخرى . . . المظالم التى كانت تهيئ الدعامة التى قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسول أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق فى أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التى تدفع للبابا عن ربيع أول عام ورسوم التثبيت الدينى ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلاً لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجرىء للمطالب البابوية لم يعرف قط فى تاريخ ألمانيا (٢٤) . وعند ما لاحظ ماكسميليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص فى معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون فى القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروستانتياً عزا انتصار الإصلاح الدينى إلى اعتدال البابا (٢٥) واستبعد الأمر بمثل لوثر أمامه فى روما ، وبدلاً من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان فى أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسول بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملاً ومناصب في المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما (٢٥). وفي الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته في تقديم تكريم لفرديريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع — ألا وهو « الوردة الذهبية » التي كان البابوات يمنحونها للحكام الزميين الذين يودون أن يخصوهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فرديريك كوارث للعرش الإمبراطوري (٢٦).

وقابل لوثر في أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ — ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلاً متضلعا في اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولاً وقبل كل شيء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسي وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤساءه — الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أذانتها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد ألا يعكر صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطلب كاجيتان من فرديريك أن يرسله إلى روما فأبى فرديريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر في أرجاء ألمانيا ، وعند ما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلاً : « أرسل لك عملي النافذ لكى ترى ما إذا كنت محطناً في رأيي ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقي للمسيحية يسيطر على البلاط الرومانى وأنا أعتقد أنه أسوأ من أى تركي » (٢٧). وفي خطاب أكثر اعتدالا بعث به إلى الدوق بجورج طالب بقوله : « يجب القيام بإصلاح دينى عام للطبقات الروحية والزمنية » (٢٨) والمعروف أن هذه هى المرة الأولى التي استخدم فيها الكلمة التي أضفت على ثورته اسمها التاريخي .

واستمر ليو في محاولاته للتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية في التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التي نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعفى فحسب من العقوبات الدنيوية التي فرضتها الكنيسة — لا الأحكام الزمنية — أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فلإن سلطة البابا محدودة بصلواته التي يبتلى فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفي الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجاس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفي ذلك الشهر نفسه عهد أيو إلى كارل فون ميلتيز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى في روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فرديريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمي للعودة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة (٣٩) .

وعند ما وصل ميلتيز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالي البلد يجاهرون بالعداء للسدة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه في أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفي ساكسوني كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التي تشير إلى أنه مبعوث بابوي . وعند ما التقى بلوثر في ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجده صريحاً يوثر أن يقرع الحججة بالحجة ولا يهاب أخذاً . وربما كان لوثر في هذه المرحلة يتوق في إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحي الغربي . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران في الإعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء المسالم للكنيسة ، وفي غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألماني يقبله الطرفان (٤٠) للفصل فيها . فسر ميلتيز كثيراً وانطلق إلى ليبتييج واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل في دير ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت ، خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صدك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن الموضوع الوليد أباً آخر » (٣١) . وفي الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاه للحضور إلى روما ليدلى باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته (٣٢) . ومهما مكن من أمر فإن لوثر ، في تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان في الثالث عشر من مارس : « إني في حيرة لا أدري هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله » (٣٣) . ورأى في هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى في فيتنبرج . وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون في الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلتقي التأييد من شاب ألمعى ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو في الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب شفاترست (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلاً صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج في مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تهاون عن الحجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الديني هذا محبوباً في فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمعون في قاعة محاضراته ، بل إن لوثر نفسه الذي وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة الإنسان » (٣٤) كان يجلس في تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير » (٣٥) .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يؤثر المسالمة والتراخي . وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حلیم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل جانب للوثر وأشده اعتدالا قد اتضح في حبه الذي لم ينقطع لرجل يختلف عنه في المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبي عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور جذوع

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ،
فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أفتحهم فيها طريقاً وأن أهبط الأمور ، أما
الأستاذ فيليب فإنه يسير في رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبذر
ويستقى وهو مسرور كما حباه الله في سناء» (٣٦) .

وثمة أستاذ آخر في فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو
أندرباس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم
إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو في الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤)
وفي الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفي اليوم
الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخي بنشر ١٥٢
مقالاً ضد صكوك الغفران . وكان في مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان
ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً مني
للأمر » (٣٧) . وعند ما تحدى إريك في كتابه Obelisci رسائل لوثر دافع عنها
كارلشتادت في ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوي على
أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الديني الألماني وعن سلطة الإنجيل
العليا على مراسيم الكنيسة وتقاليدها . فرد إريك وتحده أن يدخل معه في
مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت في الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ،
ثم نشر إريك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالاً عرض أن يقيم عليها الدليل
في المناظرة . وجاء في إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى
من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسي بطرس
بأنه خليفة المسيح ونائبه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذي
أثار في كتابه « قرارات » Resoluciones مسألة أن الساطة الرومانية في
القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة
أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم
أن مقال إريك قد حرره من عهده الذي قطعه على نفسه بالتزام السكوت
وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت في المباراة اللاهوتية .

وفي يونيو عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتيشيج يصحبهما ميلانكتون

وسنة أساتذة آخرون ، ويرافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج في عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفي القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس في قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسونى بدأ إيلك وكارلشتادت المناقشة بين القديم والجديد (٢٧ يولية) . ولم يكده أحد في ليبتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً في فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيلك العالية في المناظرة ناب لوثر عن فيتنبرج . وكان أليماً قوى الحججة في النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما في أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيلك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هبس التى أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطئ وأن كثيراً من آراء هبس كانت صحيحة وعند ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيلك قد وصل إلى غرضه الحقيقى— وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى .

وانطلق إيلك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بحرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليوم يكن متعجلاً إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يرأوده الأمل فى حل سلمى ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغته الثورة . كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشور ولازاروس شبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلاً من الكتيبات تطعن في البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح .
وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده
ضد نداء ليو يجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله في أن يذهب
الحياة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغته أنباء المناظرة في ليبستينج
جبي لوثر كمنحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيقاً مصلتاً
للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط في سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن -
الذين كانوا يتلهفون على الثورة - وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد
والحماية اللتين يمكن لعصيته المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن
تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن
شخصه .

وفي مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت في عيد
الإمبراطور هنري الرابع (حكّم من ١٠٥٦ - ١١٠٦) ، وكانت تؤيد
هنري في صراعه مع البابا جريجوري السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور
الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنري
وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك .
« في الوقت الذي رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان
عند ما كان هؤلاء أعظم أمة حربية في العالم نجد أننا لا نخضع هؤلاء العبيد
المخشين المنغمسين في حماة الشهوة والترف فحسب بل إننا نعرض أنفسنا
للاغتصاب ونهبي لهم إرضاء شهواتهم الحسية » (٣٨) . وفي إبريل عام ١٥٢٠
أصدر هوتن أول سلسلتين من *Gesprache* وهو محاورات منظومة لعبت
دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك في الإعراب عن الرغبة القومية في
الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص
الدماء » . وصرح بأن « البابا زعيم لص وأن غضابته تحمل اسم الكنيسة . . .
وروما بحر من الدنس وحماة من القذارة وبالوعة ليس لها قراز من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حذب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ » (٣٩) ، وأقام أرازموس الحججة مع هوتن ليلطف من أسلوبه وحذره ودياً بأنه في خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه في قلاع سيكيينجن واحدة لأثر أخرى ولكنه استمر في حملته . وبصح الأمير المختار فردريك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التي يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التي ترسل سنوياً إلى روما (٤٠) .

ولكن مركز الحرب ظل في فيتنبرج الصغيرة . وفي ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزايم التي لا تلين والتي يرددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التي أرجو ألا تكون تلك هي الحالة) فلن أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما — بابل هذه المصيوغة بلون الأرجوان — وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أماننا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضى على اللصوص بالمشائق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقى بالهراطقة في النار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا في دماهم ؟ » (٤١) .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد في العام نفسه « كتيباً » De Canonicis Scripturis libelus جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسائل الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لمكانات البروتستانتية قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره في الشك في تأليف مؤسس للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأناجيل ولكنه كان ضعيفاً في حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية استناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التي تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادت وهوتن وسبكنجن فكتب إلى سبالاتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد ألقيت الرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لي بصلة ، وأنا في مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إنى لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحي وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية » (٤٢) .

٤ - نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر في اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ شرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التي ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتي إلى روما في خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علناً فإنه سوف يبتز من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التي كوّنت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية — كوطنى ألماني — خطاباً مفتوحاً إلى أشرف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل ندائه « استغاثة بالنبييل الشاب » الذي كان قد اختير منذ عام لإمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأثعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا ينعش في كثير من الأفتدة آمالاً كباراً في الخير »^(٤٣). وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التي شيدتها البابوية حول نفسها وهي : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهلم . فأولا ليس هناك فرق حقيقى بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحي ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيثون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما نص عليه القاتون الكنسى مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية »^(٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحي يعد قساً فإن له الحق في أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه^(٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بيثة على حق البابا المطلق في دعوة مجلس . وإذا كان ينشد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقدفه بحرمانه معتمدين في ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان »^(٤٦) ويجب دعوة مجلس في أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة في أن زعيم العالم المسيحي يعيش في ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد في المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون في روما مناصب دينية تدر عليهم دخلاً دون أن يؤدوا عملاً ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التي يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل إلى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح في مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدى البابا ؟ . . . وإذا كنا بحق نشقى للصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشهه الرومانى أن يفلت من العقاب ؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن ينجى إلى العالم بل وشهرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن في وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم البسكوت ؟ » (٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليخلص رجال الدين الألمان من تبعهم لروما ولينشوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى . . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة المهسين في بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفي أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق » (٤٨) « ويجب أن ينيذ كل هانون كنسى وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — « يجب علينا فوق كل شىء أن نطرد من الأراضي الألمانية مبعوثى البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهى التى يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مرأ فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضراليل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحقيقى للمسيحية فإن هذا الشىء يكفى لإثبات هذا . أسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقدمس الرجال بل أكبرهم إثماً ؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه في هاوية
الحكيم . . . يا سيدي المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك
يشرق ودمر عش الشيطان في روما ! (١٩)

وأصبح هذا الهجوم العنيف الذي قام به رجل ضد سلطة تشمل كل
أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالحذرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط
والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية في تاريخ ألمانيا .
وسرعان ما نفدت أول طبعة من كتاب « خطاب مفتوح » وشغلت مطابع
فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل إنجلترا ، مهية لتقبل
الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة
ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد
وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنري الثامن لم يذب العقيدة الكاثوليكية بل رفض
أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فلإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لا في
صحارى اللاهوت بل في الأرض الخصبة لروح ألمانيا القومية وحيثما فازت
البروتستانتية حملت القومية العلم .

وفي سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إريك وجيرون الياندر منشور الحرمان
من غفران الكنيسة في ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو :
« الأسر البابلي للكنيسة » (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت
والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان
له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير « خطاب مفتوح » على التاريخ
الديني والسياسي . فكما قاسى اليهود طويلاً من الأسر في بابل فلإن الكنيسة
كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها في العهد الجديد قد تعرضت للأسر
ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية في روما . وفي خلال تلك الفترة
تعرض دين المسيح إلى الفساد في الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن
المسيح قد أعطى حوارية نبيلاً ونخبزاً في العشاء الأخير فلإن المهسين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكل الشاكين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والنبذ إلى جسد ودم المسيح ، فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيحيى روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيحيى بإرادته وبقوته ، فهو حاضر في القربان المقدس مع الخبز والنبذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم^(٥٠) . ورفض في هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه في القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما ينزعه في الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التى تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يثبت فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا »^(٥١) . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنا مأمى وأمشى . . . وأتعامل مع وثني أو يهودى أو تركى أو هرطيقى فإن في وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم ، فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحمق لتحريم هذا . . . إن الشخص الوثني سواء كان رجلاً أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس والقديسة لوسى »^(٥٢) . وأى امرأة تتزوج من رجل عنيى يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضاجع رجلاً آخر لكي تنجب منه طفلاً ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطاق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لانهائية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه^(٥٣) . ثم أضاف لوثر التحدى إلى الهرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدى تتضمن حساً على سبب أقوالى »^(٥٤) . . .

وإذا كان هذا حقاً فإنى أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذى أقوم به .

وكان حرياً بمثل هذه السخرية أن تزيف ميليتيز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميليتيز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخرأ ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمته اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليفة القديس بطرس وسليل آل مديتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر فى غير هوادة فساد البابوية فى الماضى والمحكمة البابوية فى الحاضر : « إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة فى حياتك الطاهرة الذيل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالا للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التى تسمى المحكمة الرومانية والتى لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتى بقدر ما أستطيع أن أرى ، تنسم بنجث غوى لا أمل فيه قبيح الصيت - فهذه السدة أنا أزديها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم الموابخير التى يندى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . وإطالما ساء فى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا فى هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو » يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التى لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكى تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين فى مركز خطير يرثى له . فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يهرفون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلنون قدرتك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن برسوا قواعد خبثهم في الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والخلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك (٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم « عجالة في الحرية المسيحية » (نوفمبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها في شكل موجز » (٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسي - أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هي التي تخلق المسيحي الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة » (٥٧) . والإنسان القوي الإيمان بالله والذى يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بحرية الإرادة فحسب ولكن بنعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن اللعنة الأبدية بل ومن القانون لأن الإنسان الذى تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه في غنى عن الأوامر بالاستقامة (٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما في وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحي مؤمن يعد قسّاً يقوم بالخدمات الدينية .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إريك والياندر يواجهان الثورة الدينية مباشرة وأحرزا نجاحاً في إعلان بشرة الحرمان من غفران الكنيسة في مايسين ومرسيدبورج وبراندنبورج ، أما في نورمبرج فانهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهaimer وشينجلر وفي ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الدينى وسجن طابعى كتب هوتن وصودرت كتب لوثر فى أنجولستادت وأحرقت فى ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن فى ليبتسيج وتورجاو وديپيلين لطخت النشرة المعلقة بالقساوة ومزقت وفى أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين فى رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ فى النهر ، وأخيراً فر إيدك من المسرح الذى شهد انتصاراته قبل ذلك بعام (٥٩) .

وندد لوثر بالإعلان فى سلسلة من الكتيبات التى تقطر مرارة وفى إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالى ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفى السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثة رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثى البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التى المثقف فى فيتنبرج لكى يتجمع خارج بوابة « الستر » فى المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها فى النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز فى عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسى وفلسفة الاكوينى وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع فى ابتهاج وألقوا بها فى النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفى الحادى عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية (٦٠) وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ - المجلس النيابي في ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك في الصراع بين اللاهوت والحكومات .
ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخي في اثني عشر فصلاً أو يزيد .
واستهل الرجل ، الذي قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ،
سيرته بميراث ملكي وإن يكن مدنياً ، فجده من جهة أبيه الإمبراطور
ماكسميليان وجدته ماري البورغندية ابنة شارل الحسور ، وجده من جهة
أمه فرديناند وجدته إيزابلا ، أما أبوه فهو فيليب الجميل ملك قشتالة الذي
ارتقى العرش في السادسة والعشرين ومات وهو في الثامنة والعشرين من
عمره ، وأمه هي جوانا لالوكا التي جنت عندما بلغ شارل السادسة ، وعاشت
حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره . وقد ولد في غنت (٢٤ فبراير
سنة ١٥٠٠) ونشأ في بروكسل وظل فلمنكي اللسان والطبع إلى أن اعتزل
الحكم نهائياً في إسبانيا . ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت
تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية ، وكان يستطيع أن
يلتزم الصمت في اللغات الخمس . وحاول أدريان الأوترختي أن يعلمه
الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر ، وتلقى على يدي هذا الأسقف الصالح
تأديباً صارماً ، يتفق مع عقيدة المستمسين بأهداب الدين ، وربما تشرب
مع ذلك في منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه
الفلمنكيين الذين شاع بينهم قلد يكتنفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على
طريقة أرازموس .

ولكم شكاً بعض القساوسة من إطلاق حرية الرأي الديني بين حاشية
شارل (٦١) . واعتصم بالقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب . وقرأ
كومينيس وتعلم في مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسية ، وعدم تمسك الدول بالأخلاق .
وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانك
وادعاء الحق في حكم برغيا . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمسئولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفي السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وساردينيا ونابلى وأمريكا الإسبانية ، وفي التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه في ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدماثة أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر في سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل (٦٢) منذ ذلك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر في سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثاني مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتهكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطوري لولا مساعدتي وفي وسعي أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد في هذا منفعتي الخاصة . . . وإلى أطلب بكل احترام أن تتفضلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذي كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير (٦٣) .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك في ميناء أنتورب (٦٤) ، وعند ما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنگاريا هب لنجلتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية (٦٥) ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسي «فتش عن المصرفي» .

وهذا الفتى الذي وجد نفسه في التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا إنجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد يميز بالصحة الضعيفة التي ضاعفت من تقلباته . . . كان صاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أفنى ، وذقن ينم على التحدى ، خافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف، المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر غير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « في رأي أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى في رأسه أكثر مما يبدو على وجهه » (٦٦) . ولم يكن متوقفاً الذكاء إلا في الحكم على الرجال — مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التي تواجهه بالجهد الجهد — بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه في الجسم والعقل . . . يمتد إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجيء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس : ولم يكن أكبر سنّاً من القرن الذي وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فرديريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف في كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له ألياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فما كان من فرديريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة في الكنيسة ، وقال إن الجهود التي تبذل لإصلاحها يجب ألا تنقطع ، وعندما سأله فرديريك ما هي الأخطاء الرئيسية التي ارتكبتها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا في تاجه ، والرهبان في بطونهم » (٦٧) . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية (٦٨) وأبلغ فرديريك القاصد الرسولى أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت في هذا التماس .

ورد الإمبراطور بالحواب نفسه . . . كان قد وجهه الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألماني دون محاكمة مجادلة في ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت — مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه .

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسمياً أكثر من اعتراف ألمانيا به
لإمبراطوراً عليها وهي بلد ينفر من نظام الحكم المركزي ، ولم يعد رجال الدين
في أسبانيا يحملون طويلاً ملكاً يترفق بالهرطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب
مع فرنسا كانت تلوح في الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها
مغتماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوى جيشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية
الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيعة ، وليس من شك في أن
مقنوط لإحداها سوف يلحق بالأخريات ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور
أن يحكم مملكته المتناثرة المتباينة دون أن يلتقي العون من الكنيسة في النظام
الأخلاقي والإدارة السياسية ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من
رجال الدين كما أنه كان في حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية
هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقلب في ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله
أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً لإمبراطورياً لعقد اجتماع
في ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة
(٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسي في المناقشة وليس
من شك في أن القوى التي كانت تعد الإصلاح الديني خلال قرون بلغت
أوجها في مسرح من أعظم المسارح الدرامية في التاريخ الأوروبي . ويقول
مؤرخ كاثوليكي : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبلاء الألمان محاولات لوثر
وأيدتها » (٦٩) . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها
ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض
الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التي تنص على الحرمان من غفران
الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس
للكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه
الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أتى عمزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم في وجهي ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتي . وإلى لأرجو من البابا أن يمنحني صك غفران كامل وأن يرعى لإخوتي وأخواتي إذا أصابني مكروه » (٧٠) .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر في أسى أن عربية لا تسع كل هذه المقالات البذيئة . وأصدر هوتن ، من قلعة سيكنجن في ايرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموماً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبدلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجروئون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية في مظاهر الترف وفي التبذل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ » (٧١) وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنسيسكاني بجان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعي كنيسة فردريك في محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلي جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . . وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يمطه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتي ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحدوا الكنيسة من مثل هذه المساوئ التي تنطوي على الغرور » . ووعده بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المرددة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله (٧٢) . ولكن لوثر أبى عنده ما أخطر بذلك في فيتنبرج . . .

وفي الثالث من مارس قدم ألياندر إلى المجلس النيابي (الدايت) اقترحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدي الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بلث إلى الخوف من التعرض لأي عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان » (٧٣) . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكروه بجواز الأمان الذي كان الإمبراطور سيجسمونه قد أعطاه لهم وأرسل أدريان الأوترختي ، وكان وقتذاك كاردينالاً لتورتوزا ، ثم نصب باباً بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفي اليوم التالي من أبريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلا . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن في ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك » (٧٤) . وانطلقت عصابة من الفرسان إلى لقائه ومرافقته إلى المدينة (١٦ أبريل) . وانتشر نبأ وصوله في الطرقات فتم جمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال ألياندر « يخيّل لي أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وسخى شارل حجب في الظلال .

وفي يوم ١٧ أبريل مثل لوثر في رداء الرهبان أمام المجلس النيابي (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيرون ألياندر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية ورصت على منصدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك — ولم يكن صاحب مناظرة ليبتيسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة ترير — وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التي تضمها ؟ ومرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذي يمثل هيئة الإمبراطورية والساطة النيابية وجلال الكنيسة ، فخائته شجاعته وأجاب بصوت خافت حيي أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثاني فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات في موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابي لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائي سوف يكون نقطة تحول في التاريخ .

وفي يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابي بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة باللغة في الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله إريك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التي كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التي تناولت المفاصد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى في القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت في هذا الوقت فإني أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية في كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ما جاء في الكتاب المقدس ، فأبدى إريك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسماع ما جاء في الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهراطقة أنك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التي ارتكبتها ويكلييف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكماً فوق حكم كثير من الرجال المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر مما يعرفون

جميعاً ؟ ليس لك الحق في أن تدخل في المناقشة العقيدة الأرثوذكسية المقدسة التي لقنها المسيح المشرع الكامل والتي نشرها الرسل في أرجاء العالم ، والتي ختمت بدماء الشهداء وأكدها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتي يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها خشية ألا ينتهي النقاش . إلى أسالك يا مارتين . أجب بأمانة وصدق بغير موارد — هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التي تحتويها ؟ » (٧٥) فرد لوثر بجوابه التاريخي بالألمانية : ما دام جلالتيكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فيني سأجيب بغير موارد . . . ما لم تدينني آية في الكتاب المقدس أو الحجة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهما يناقض الآخر) فإن ضميري أسير لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفة ضميري ليس من الصواب والأمن في شيء . أسأل الله العون . آمين » (٧٦) (*)

فواجهه إليك بأنه لا يمكن لإثبات أى خطأ في المراسيم العقائدية التي أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلاً بلهجة قاطعة : « هذا يكفي . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى » (٧٨) . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة في التاريخ الحديث الإنسانية » (٧٩) .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى في عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التي لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد في تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصي وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس في رسمنا أن نؤكد صحة الكلمات المشهورة التي صغرت كل النصب التذكارية الفخيم الذي أقيم تخليداً لـ لوثر في ورمن — « هنا أقف ولا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر » . ولم ترد الكلمات في النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت في سجلات المجلس النهائي (الدهات) لأول مرة في أول رواية طبعت لخطابه (٧٧) .

يعجل بتقويض أسس النظام الاجتماعى لأن هذا كما بدا له قائم على قانون أخلاقى يستمد بدوره قوته من الأحكام الخارقة للعقيدة الدينية .

وفى اليوم التاسع عشر من إبريل دعا كبار الأمراء إلى مؤتمر عقده فى حجراته الخاصة وقدم لهم بياناً عن الولاء والنية مكتوباً بالفرنسية ويبدو أنه كتبه بنفسه : « لى أنحدر من صلب سلسلة طويلة من الأباطرة المسيحيين لهذه الأمة الألمانية النبيلة ومن ملوك أسبانيا الكاثوليكين ومن أرشيدوقات النمسا ودوقات برغنديا . وكانوا جميعاً أوفياء حتى الموت لكنيسة روما ، ولقد دافعوا عن العقيدة الكاثوليكية ومجد الرب وقد عازمت على أن أحذروا حذوهم . إن راهباً واحداً يسير ضد المسيحية بأسرها كما عرفت منذ ألف عام لا بد أن يكون على خطأ مبين ، ومن ثم فلى قررت أن أخاطر ببلادى وأصدقائى وسمى ودمى وحياتى وروحى . . . وبعد أن استمعت أمس لى دفاع لوثر المتشبهث برأيه فلى آسف لى تأخرت طويلاً فى اتخاذ الإجراءات ضده . وضد تعاليمه الزائفة . لن يكون لى معه شأن آخر . وفى وسعه أن يعود فقد منحته جواز الأمان ولكن عليه أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتنة ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيئ السمعة ولى أطلب منكم أن تدلوا بأرائكم كما وعدتمونى » (٨٠) .

فوافق أربعة من الأمراء المختارين على هذا الإجراء وامتنع فردريك صاحب ساكسونيا ولودفيج صاحب بالاتينيت عن إبداء رأيهما — وفى تلك الليلة — ١٩ إبريل ثبت أشخاص مجهولون على باب قاعة المدينة وفى أماكن أخرى من ورمس إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح رمز الثورة الاجتماعية ، وأقزع هذا بعض رجال الدين وألحوا شخصياً على لوثر بإحلال الوثام محل الخصام مع الكنيسة ، ولكنه أيد تصريحه للمجلس النبائى . وفى السادس والعشرين من إبريل بدأ رحلة العودة إلى فيتنبرج وأرسل ليو أوامر تقضى باحترام جواز الأمان (٨١) ، ومع ذلك فإن الأمير المختار فردريك نحش أن يحاول رجال الشرطة الإمبراطورية القبض على لوثر بعد انتهاء مفعول جواز الأمان

يوم ٦ مايو ، فرتب - بعد أن رضى لوثر بهذا على مضض - كميناً له في طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذته خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفي السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابي ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التي أعدها ألياندر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم إنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . إنه وثني في إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذي يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة في بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه يذكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحي وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيوف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يالحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذي يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل . . . وعند ما تنقضي هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان » (٨٢).

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسي من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابي (الدايت) المحرد من السلطة على المنشور ، وفي اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد ألياندر الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ - الراديكاليون

كانت فارتبورج في حد ذاتها قطعة من الدباب الكثيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مخفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) في غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضى حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وخصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألماني الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطع قتل الأرانب في الوقت الذى لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأستلمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب البجعة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألماني شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتغصن هنا . . . بودى أن أخوض نهار المعركة » (٨٣) . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل في مخبئه لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر في خلوته الفكرية وتساءل أيمن أن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأخبار على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى نذير بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها في أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت ترعجه . . . أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان في مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالحوز (٨٤) . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته (٨٥) . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأضدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات في علم اللاهوت وبتريجة العهد الجديد إلى الألمانية وقام في إحدى المرات برحلة خاطفة إلى فيتنبرج ليزكى نار ثورة .

وكان تحديه لرجال الدين في ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتيهون إعجاباً .

وفي أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً في الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومخطوطات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفي خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون في أرفورت الدير وبشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجحود والخيلاء والشح والترف والجحود والمبرطقة» (٨٦) .

وحينما ألف ميلانكتون في فيتنبرج كتابه *Loci Communes rerum theologicarum* (١٥٢١) — وهو أول عرض منهجي للاهوت البروتستانتي . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة في كنيسة القلعة ، بأن يتلى القداس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين — من رهبان وقساوسة علمانيين — وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة في ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو في الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : «يا للسما ! أيقبل أهالي فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟» (٨٧) ومع ذلك فإنه وجد في الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن «عهود الرهبنة» دافع فيها عن نبذهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان في نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريزة الجنسية أمر طبيعي لا يمكن قمعها ويعلم أن عهود الرهبنة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام . وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً في افتتاح عهد الإصلاح الديني .

ومضت الثورة قدماً ففي اليوم الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأوكويستيون في بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القديس في دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفمبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما خلعت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مماثل . وفي الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية في فيتنبرج وطرّدوا القساوسة من المذابح ورجعوا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعذراء . وفي الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنسيسكان في فيتنبرج وفي اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لا يزال متنكراً في زي نبيل ألماني شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية » (٨٨) . وفي اليوم التالي عاد إلى فارتبورج وبعد ذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلى أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادي كان يتذكر دائماً في فزع الضرر الذي حاق به في المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا في اختباره إلى حد بعيد وحملوه ما لا طاقة له به بلا وازع من ضمير . ولم يكن في وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحملة بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكي يضرب

فى كل اتجاه بمدقات الحنطة والمراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلمهم عادوا إلى رشدهم وخففوا من استبدادهم الجنونى . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لى عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرفيعة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التى تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فىنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء » (٨٩) . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا الالتجاء إلى القوة فالله منتقم جبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شيء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعند ما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب نخط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم » (٩٠) .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلسنات القداس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القسلس .

وفى ذاك الوقت تقريباً دعا جابريل تسفراينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت . وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفريكا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

في ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشتغلون بالنسيج في ظل بلدية أعضاؤها من السادة التجار ، وشجعت حركة اجتماعية من العمال بأصداء وذكريات تجربة التابورية التي قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح توماس مينتسر راعي كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبّر عن آمالهم وأصبح في الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الديني ، وعند ما أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل عمن يفسر النص أعان منتسر واثنان من رفاقه — وهما نيكولاس ستورك النساج وماركوس شتينر العالم — أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يؤجلوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه كل الفجار — بما فيهم جميع المساوسة الجاهلين بصفة خاصة ، وبدأ بعد ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية^(٩١) وفي عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج منها وحصل على أبرشية في « الشنتد في ساكسونيا » . وذهب ستورك وشتينر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكارلشتادت أثناء غياب لوثر .

وفي يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين في فيتنبرج ، وفي يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة في المجلس البلدي إلى حله أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضي برفع كل الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذي ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى في

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير في أمور الدنيا ، ففي الوقت الذي ينبغي فيه أن نتأمل في آلام المسيح التي تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسييه Byramus Thibes . . . أبعادوا آلات الأرغن والأبواق والنأي إلى المسرح » (٩٢) .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم القساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار (٩٣) . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسييفاكاو — أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين في اللغات والكتب — ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرص الآباء على أن يحافظوا على براءة أطفالهم من التأثير بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التي رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف يقسم عرى النظام الاجتماعي بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التي أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحق شعر راسه وسارع بالعودة إلى فيتنبرج ، وفي يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ سلسلة مؤلفات من ثمان عشرة عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يحبذ وقتذاك أي التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحرق الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعونى فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذى كشف له سبب حانه وتعالى عن كلمته التى لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم فى القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيرونى أولاً (٩٤) ... أمهلونى بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنيبذ والنساء فهل نحرّم شرب النيبذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننزعها من السماء (٩٥) ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية (٩٦) . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشرية التقليدية فى إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس فى كنيسة أخرى بالخبز وحده فى المذبح العالى وبالخبز والنيبذ فى مذبح جانبي . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلاً والمهم هو الروح التى يتناول بها القربان المقدس .

كان فى أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية فى تلك العظاا الثمانية التى ألقاها فى ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شيء لكى يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح فى ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحي من الله فقبل التحدى وأجابوا بأنه يضمّر لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كاراشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبرشية فى أورلامينديه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد » (٩٧) . ولقد سبق كاراشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالحرث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلامينديه ليعطى ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجع بالحجارة والطين (٩٨) . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسعى إلى مكان أمين مع لوثر وحصل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالى ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً فى بازيل حيث قضى نحبه فى هدوء عام ١٥٤١ فى جو مدرسى .

٧ - أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً فى الجامعة — ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥,٠٠٠ دولار؟) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته . وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس فى دير أوغسطينى مع طالب يقوم بخدمتها وقال : « كان فراشى لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قلدراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فلماذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أنى أتهوى فى الفراش دون أن أدري أن هناك خطأ ما » (٩٩) . وكان العمل الشاق يغفر له شهيته المفتوحة وفى هذا يقول : « لى آكل كبوهيمى وأشرب كالمانى والحمد لله آمين » (١٠٠) .

وكان يعظ كثيراً ولكن فى لم يجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغه بسيرة أخاذه تستولى على ألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هى الشطرنج

والعزف على الناي ، ويبدو أنه كان يجده متعة أكبر في الساعات التي يقضيها في مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ في الجدل لا يصده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً متمزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعنًا . وترك خصومه يتأنقون في اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عند ما يريد مخاطبة العالم المسيحي بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يزه مؤلف ألماني آخر في وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفي مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة وفي تشبيهاته الموفقة والتي كانت أحياناً تبعث على الابتهاج في الألفاظ تمتد جذورها في كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها ببراءة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتئذ جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تذكيها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التي ديجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، في ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الديني أما الكتب التي كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجده من يشتريها ، في حين كانت مؤلفات لوثر هي أكثر الكتب رواجاً في هذا العصر ، وكانت لا تباع في المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة في سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما بيع منها في باريس عام ١٥٢٠ فاق ما بيع من أي كتاب آخر . وفي مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضي المنخفضة وإنجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر في كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد ملء تأثره في الناس » (١٠١) .

ورجح الأثر الأدبي القوي للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبي أوروبا إلى شمالها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هي الإصلاح الديني ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذي جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمان عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تثير مائة مسألة في التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام في التركيب ، واستخدم لوثر في ترجمة العهد الجديد النص اليوناني الذي كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثني عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم في مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة في هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة في هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألماني وأصل اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة في ساكسونيا العليا — باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغي ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات في بيوتهن والأطفال في الشوارع وعامة الناس في السوق . . . يجب أن نسترشد بهم في الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نخطأ بهم بالألمانية » (١٠٢) . ومن هنا كان لترجمته في ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا حده له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى في الأدب القومي .

وطبعت في فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد لإبان حياته ،
وظهرت في أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من
المنشورات التي تحرم تداولها في براندنبرج وبافاريا والنمسا فلما أصبحت
أكثر الكتب رواجاً في ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن
تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التي واكبت الحركة القومية والتي
سأرت هزيمة الكنيسة العالمية في بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيرها .

ولما كان لوثر قد أكسب طويلاً على الكتاب المقدس وورث وجهة نظري .
القرون الوسطى عن صدوره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر
الأوحد لعقيدته الدينية وشريعته . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التي
لا تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس — مثل تعميد الطفل والراحة يوم
الأحد — فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة في أن تضيف إلى المسيحية عناصر
لا تعتمد على ما جاء في الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطانها مثل
المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين وكان كشف فلا عن
« هبة قسطنطين » (هبة أوروبا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة
عتيقة في التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين في الوثوق بروايات
الكنيسة وشكك في الشرعية الملزمة لمراسيمها وفي عام ١٥٣٧ ترجم لوثر
نفسه رسالة فلا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزلل أما الكتاب
المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التي لا يأتيها الباطل
من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان في وحي من لدن الله ه
وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى في غرور إلى فهم الجلال
الذي يدق على الفهم لنور عجائب الله التي لا تدرك . . . ونحن نتطلع
بعميون مغمضين ، مثل حيوان الخلدة ، إلى مجد الله » (١٠٣) . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة . فإذا كيف يعتقد ذلك الأحق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لتأكله ودمه لنشره في العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدت ثم غدا رجلاً يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب (١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفجر صنائع للشيطان كبغى فتك بها الحرب والجذام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هي وحكمتها . . . فاقدفها بالروث في وجهها . . . وأغرقها في العماد » (١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة (١٠٧) أرسطو ذلك الوثني الداهية المغرور اللعين .

ومع ذلك فإن لوثر خطأ بخطوتين في اتجاه العقل : جعل الموعظة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن في الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد في تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس : إلى أى مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا ويلاطس أو هيرودس » (١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها ورأى بولس

فى التبرير بوساطة الإيمان ، واستراب فى أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدأ أنها تذكر صحة التوبة بعد العماد (ولذلك فإنها تؤيد الذين يذكرون التعميد النصرانى) وقدر أولاً أن سفر الرويا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هى رسولية ولا نبوية » (١٠٩) .

« أما سفر عزرا الثالث فلأنى أقذف به فى نهر ألبا » (١١٠) . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التى تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شىء بانتظام فى حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكاثوليكة أكدوا أن الاختبارات التى وضعها للحكم على الصحة والوحى كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحلون حلوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شىء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فلن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بخلافه وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس فى الحوت فى الكتاب المقدس لسخر منها وعددها خرافة وبالمثل حكايتهما عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقى حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقيين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازى (١١١) وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانية وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فمكر بشرى ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر وندرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضائل الضوء لكى يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الهزيلة النعسة التى نحيهاها على الأرض» (١١٢) .

وعندما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحي الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس .

٨ - لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات المأثورة فى القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حذا فى ثورته حذو ويكلييف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فثورته مثل ثورتها تكمُن فى رفض البابوية والمجالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شيء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلهما البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلهما الحماية فى رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكلييف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسى للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتصم بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التى شابَت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الهيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو رائد فلسفة الجدلين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف — الرسل — المسيح إلى تكفير عن خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان في وسعه أن يتكلم بفصاحة عن رحمة الله وعفوه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح باعتباره القاضي الأخير أكثر استقراراً في نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تقريباً في الطوفان وأنه أحرق سدوم وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها اللعنة إلى الأبد » (١١٣) . ونبتت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة وهى التى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وبقي فيها اليوم الآخر بكل ما فيه من فزع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون هذا كله قد سلب الوحوش المفترسة والديدان والنسوة الحبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوج من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطأى اللفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك » (١١٤) .

ولقد أخذ اللجنة والجحيم قضية مسالمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم (١١٥) . ووصف جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدللة « لها شعر ذهبي يلمع كالأحجار الكريمة » (١١٦) ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير كلابهم المدللة . وتحدث فى ثقة مثل الأكويى عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لأجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظيمة لانهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التي تحيط بتصوير الإنسان وفي هذا إقحام للزرادشتية في لاهوته . كما سلم تسليمًا كاملاً بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد الإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم في الغابات والمياه والبرارى وفي الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهي متأهبة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم في السحب الكثيفة السوداء » (١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً يخاف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إني أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً (١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناي وأحياناً كان يفزع الشيطان المسكين (١١٩) بأن يرميه بأقذع السباب (١٢٠) . وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات الخيفة التي تصدر من الجدران وهي تنقلص من البرودة في الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هذه الأصوات ، وكان في وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحرم حوله وأن يستأنف نومه في هدوء (١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهي في نظره من فعل الله (١٢٢) . وكان يجد صعوبة في إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعي . ويبدو أن كل التراث الشعبي اليميني عن الطيف الصخاب أو الروح التي تحدث الضجة قد صدقه لوثر بحذافيره والشياطين يؤثر أن تتخصص أجساد الثعابين والقردة (١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن في وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالاً فكرة صائبة ، بل إنه أشار في مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذي يولد نتيجة لهذه العلاقة (١٢٤) . وقبل السحر والعرافة على أيهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية (١٢٥) واجب

مسيحي بسيط . وكان يشاطره في معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكاثوليكية أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد في قوة الشياطين وقدرتها على الوجود في كل مكان بلغ في القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل في أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشیطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتي .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاعتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحي أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهير بعيدة عن روح المسيحية وللبؤس تكون هكذا . . . والأشرار يفرقون دائماً الأخيار عدداً » (١٢٦) . بل إن أعمال الشر في الرجل الخير تفوق في عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى في الميزان أمام آثامنا » (١٢٧) . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطقسي الذي أوصت به الكنيسة - الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداست للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمنها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها » (١٢٨) ولم يشك في مدى الحاجة إلى الإحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس(**) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فلإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هي وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بغرائز تنفق مع مرحلة الصيد ولكنها في حاجة إلى كبح مستمر في الحضارة .

(**) انظر الطوبوات - اصحاح متى ٥ : ٣ - ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب» (١٢٩). ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة — فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته — أن تكفر عن الذنوب التي اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المتعدية — آلام ابن الله وموته — ، ولا يمكن أن ينجيننا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهي . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن في قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو » (١٣٠). وهذا الإيمان هو الذي « يبرر » — يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعمل سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة » (١٣١). وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحي هو أن يطرح جانباً كل يقين في الأعمال وأن يقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً » (١٣٢) واستطرد قائلاً في فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الحاطين :

« إن يسوع المسيح ينحنى ويدع الحاطيء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقذه من الموت آية تعزية للأرواح التقيّة أن يعتصم بالمسيح على هذا النحو وأن تله في خطاياى وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعهده هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! وعند ما ترى أن خطاياك تلصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمل الذي يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً في الخطايا إلى أذنيه فيأتى الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعداً ؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شيء آخر تعمل من أجله » (١٣٣) .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرفهة الحس التي كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً في جسامه ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تيتزل المزعوم « أسقط قطعة نقدية في الصندوق تتبدد ذنوبك كلها » وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التي زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهناك فقررة تسترعى الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغويها الشيطان بلحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

« اسع إلى مجتمع رفاقك الطرويين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكي يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يفضل إذا اشتد فزعاه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . . بودى لو كان في استطاعتي أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان ! » (١٣٤) .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرححة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح في الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصيح الوعاظ اللوثرين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده (١٣٥) .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلي بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لاعتقاد عملي ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل في أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولاً وقبل كل شيء صالحاً إلى الحد الذي يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخطيء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات (١٣٦) غير أن ما أنكره هو فاعليتها في سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلاً صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات » (١٣٧) . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذى ينجيه من عذاب الجحيم ؟ لأنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التى يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء » (١٣٨) . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين في نار جهنم (١٣٩) .

« هذه هى ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذى ينجى من عذابه قلة من عباده والذى يعاقب الكثرة منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق في تقديره أن قضى علينا باللعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيت الأشقياء . وإذا استطعت بأى جهد عقلى أن أدرك كيف يكون الله رحيماً في الوقت الذى يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون في حاجة إلى الإيمان » (١٤٠) .

وهكذا نرى أن لوثر في غمرة رد فعله القروسطى (*) ضد كنيسة عصر النهضة التى ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق . وها هو عالم اللاهوت الذى كتب ببلاغة لا تضارع عن « حرية الإنسان

(*) نسبة إلى القرون الوسطى .

المسيحي » قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) في إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شيء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليماً بكل شيء فإنه يعرف كل شيء مسبقاً وكل شيء لابد أن يحدث كما سبق في علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث في كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قدراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح » (١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق في علمه فحكيمته هي قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذي لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب « وحطم أحد المناطق جسد زوجته بعصية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب » (١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً في لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين في تزمت لا يلين وبدا راعباً في قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان في وسعه أن يكون أكثر تسامحاً في قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه في الخضوع لسلطان بابوات يشتمون في جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتي للكنيسة بأنها هي الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والأتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والمهرطقة . . . إلخ) يسرون في ظلام دامس سادرين في الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا في آثامهم» (١٤٣). هنا ولدت من جديد في فيكتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التي تقول : « لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة » .

وأعظم مادة ثورية في لاهوت لوثر هي تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، واسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هائلة التمدد التي جعلت نظام القسوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون « أولاً بين أنداد » ولكن أى إنسان في وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل نائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة الدعة التي يعيشونها في الغالب وأن يتزوجوا ويكدحوا مع الآخرين ، فالرجل الذي يجر المحراث والمرأة التي تشتغل في المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمتم بصلوات غير مفهومة في تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هي الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربّه ولا تكون إتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معاشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة (١٤٤) .

أما القرايين المقدسة التي كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهي لا تنطوي على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكالها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسيح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد يعفو الله في الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغنى عنها . أما العماد فهناك بيئة

عليه في مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعى باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذى يستند إليه في الكتاب المقدس (*). وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الربانى . ويرى لوثر أن الفكرة التى تذهب إلى أن القسيس يمكنه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح سخيصة تنطوى على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والتبنيذ في القربان المقدس . وليس القربان المقدس سحراً كهنوياً ولكنه معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر في القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت في شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالحكام الأسقفية والقانون الكنسى وأصبحت المحاكم المدنية في أوروبا اللوثرية هى المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هى السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمانيون موظفى الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا فى الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التى كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنفها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذى أصبح الموضوع الأساسى فى الحياة العصرية .

٩ - اللوثرى

عند ما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مذبذبة غاضبة كانت بمثابة النافوس المنذر بالثورة تقريباً ، فى كتيب « ضد () » استند به فى الشهادة الثورية الاعتراف الجماعى بالإثم على أنه من الإبراء العلم .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمع البطارقة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكلدحهم ؟ . . . لأنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف تبسّم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجسد أو بالمتاع أو الشرف للقضاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون » (١٤٦) .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكُتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليم الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يعطوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تمنح الإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله في ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء في العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاكين على ظهر الأرض . إنهم السجانون والجلادون الذين يسلطهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التي تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فلنرى بهل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز في المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » ولنرى أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطيئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركي ولن يجديكم فتيلاً تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلاً بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادى يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقيمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانون من طغيانهم وغرورهم فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذى كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام » (١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافاريا بأن هذه دعوة للثورة تنسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها لافك وحث الأمير المختار فردريش على أن يصادرها . ولكنه على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك Wenzel Link (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوى الذى طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا» (١٤٨) . أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهي ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع في هذه الجماعة أو في هذا العالم المسيحي ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر ولا يوجد شيء ملك لأحد فحسب » (١٤٩) .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الخرفي ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً في السياسة والدين، بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحفاظ على المجتمع الزراعي الذي عرفه في طفولته واستمراره مع إدخال بعض وجوه التحسين التي تتسم بالبر . واتفق في الرأي مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرححة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مردولة » (١٥٠) واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمان رخيض ويبيعها بثمان غال . وندد بالخبثكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعاً لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردهم من البلاد » (١٥١) ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة في فم آل فوجر » (١٥٢) ، وانتهى إلى رأى ينذر الويل في رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغي أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يجرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكني أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعيا : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليسبقون للصوص الذين سرعوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشنق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ الرومانى : « الأغرار من اللصوص يزج بهم فى السجن ويطرحون لآلات التعذيب بينما يسير اللصوص المعروفون للناس فى الخارج يرفلون فى الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا فى آخر الأمر ؟ إنه سوف يفعل ما يقوله لحزقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفى هذه المرة أخشى أن يكون هذا على الباب (١٥٣) .

وقد كان .

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ - ١٥٣٦

١ - الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون في صبر نافذة فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والممولين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد في إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضي الغنية التي تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألماني إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفي الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان في لاندאו تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيكينجن مدينة تريز وقلدها بمشورات تحرض الناس على الانضمام إليه لخلع كبير الأساقفة الحاكم ، ولكنهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته في لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم في اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات في اليوم السابع من مايو . وخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبهوا في قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التي كانوا يعتمدون عليها في معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصديق فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه في صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد جذورها عميقة في الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف في عصمة منها » (١) . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الجديد . وترددت في كنيستي لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » — وهي العبارة التي أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأنشد الوعاظ الإنجلييون ينتقلون بحرية في أرجاء شمال ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم ينددوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، ولكنهم نددوا أيضاً بالسادات الزمنيين باعتبارهم « مستبدين ظالمين » (٢) . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزمنيين كانوا هم أنفسهم ممن اهتموا بهدى العقيدة الجديدة : فيليب الهسي وكازيمير البراندنبيرجى وأولريخ الفيرتيمبرجى وأرنست اللينبرجى وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إيزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب في نورمبرج (١٥٢٢) طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التي تردت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق الموت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسىء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه في كل شيء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم في المناصب . لقد حدثنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملاً صالحاً ، لا أحد بتاتاً . . . والملاك . . . فلإننا سوف نبذل كل ما في طاقتنا من جهد لإصلاح الحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهى التى ربما كانت سبباً فى كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح » (٣) .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فردريك كنجج بجام لوتر ، ولكنه تساءل لماذا يجب أن يدان لوتر لأنه أشار إلى المظالم التى ارتكبها رجال الدين والتى أيدتها السلطات وقتذاك . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفى من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بواسطة مجلس وطنى يعقد فى ألمانيا برئاسة الإمبراطور . واستمع المجلس النيابى نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، فى عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت لإحدى اللجان إلى المدن الكبرى فى ألمانيا تطلب منها لإبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فلإنها قدمت دفاعاً كلاسيكياً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأراذل والأيتام :

« إن العالم المسيحى (أم ينبغى أن نقول العالم بأسره ؟) غنى بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل فى بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية فى القيام بأعماله فى ألمانيا فلإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتخسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدرأ معيناً فإذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر شأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدرته أو على رأس ماله ،

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح في الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدي إلى ظلم فادح وضرر بالغ بإبعاد معاش الأرامل والأيتام وبقية المعندين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات في هذه الشركات «(٤) . وأصدر المجلس النيابي تشريعاً بالألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علني ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشتري تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة في أي فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون في أرباح الاحتكارات فلن مراسيم نورمبرج سرعان ، أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابي (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسول في أوجسبورج واضطر إلى دخول تورمبرج سرّاً حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكللا نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابي من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع في مهدها فلنفسها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابي رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »(٥) وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ - حرب الفلاحين

١٥٢٤ - ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للكادحين في الحقول أيديولوجية تسهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر في رخاء ألمانيا المتزايدة .
يضاف إلى هذا أن الشدائد التي كانت قد حفزت أهل الريف للقيام بانثى
عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما في ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا
الاضطراب المحموم ازداد شدة في الوقت الذي تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر
الأمراء وحطم سدود النظام والرهبة ، وجعل من كل إنسان قساً وأعبان
حرية الإنسان المسيحي . وكانت الكنيسة والدولة في هذا العهد بألمانيا
مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً — وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً في النظام
الاجتماعى والإدارة المدنية — إلى حد أن تفويض ما يتمتع به رجال الدين
من هبة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون
والبغاريون وإخوة الحياة المشتركة في تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء
متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد
مطبوعاً لطمه لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فضح
ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش في الدنيا
كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين .
وكان العهد الجديد في هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعى » حقيقى بالنسبة
للمتطرفين في هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء
ضمناً إلهياً لكي يحملوا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الماكية الخاصة ويرث
فيها الفقراء الأرض .

وفى عام ١٥٢١ وزع في ألمانيا كتيب عنوانه karsthans أى «جون
المدرارة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر في
العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكشاكسة من
رجال الدين^(١) وطالب يهناس إبرلين في كتيب آخر صدر عام ١٥٢١
بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس
الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الحزب والنبيند كما كانت في القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب (٧) .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » سب زوراً إلى الإمبراطور فردريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الروماني والقانون الكنسي وتحديد حجم العمل في المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء (٨) . وأعلن أكتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجيلية البروتستانتية بالآمال اليوتوبية ، وكشف أحدهم أن الجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة في وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعهم بأن « المزارعين والعاملين بالمناجم ودارسى الحنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفي وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقيين في اللاهوت » ، وأرد كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر » (٩) . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء في العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكي حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس في المدن والفلاحين في الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سمعت أفكارهم الكتيبات والخطب التي لا تحصى والحافلة بالسباب والتي نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء » (١٠) . ولكن لوثر والوعاظ ومولني الكتيبات لم يكونوا السبب في الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق في المظالم التي حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

اللهب»^(١١) وحولوا استياء المضطهدين إلى أو هام يوتوبية وإلى عنف لم يكن في الحسبان وإلى انتقام شديد .

وتشبث سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُنِي واعظاً في آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار — أى الأرثوذكس أو المحافظين — بحد السيف وقال : « إن الكفار لاحق لهم في العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة »^(١٢) . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب في ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكي بقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذي كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبي »^(١٣) وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكيره بها في حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق »^(١٤) . وتسامح الأمير المختار فرديك في هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضموا في الرأي إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الخائق يضرب في الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض^(١٥) .

ووجد في مدينة ميلهاوزن الحرة في نورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدي الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامج المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين في المناطق المجاورة ، وفي يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ خلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها (١٦) ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت في هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ بجامعة أُم (كومنويلث) شيوعية ، وأثبت بفيغر أنه أقدر في الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة في دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصبيحة التي أطلقها بين رجاله هي « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء » (١٧) .

وفي نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزاوّل جنوب ألمانيا ، ولعل عاصنة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التي قضت على كل الآمال المعقودة بلخى محصول في شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذي أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكي يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شيء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفي ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إحياء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين في أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونستانس وكونتات فردينبورج ومونتفورت ولوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح في جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التي تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحربة أو الموت . وفي مارس ١٥٢٥ صاغ في ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثني عشر التي أشعلت النار في نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحى ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجيد؟ وهل لا بد ألا يمثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحيين والزمنيين أو ربما لقتلهم؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة فى البنود التالية لكى يزيلوا أولاً هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولاً نعرب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيتنا جميعاً هى أن يتحقق لنا فى المستقبل قوة وسلطان يهبان لجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق فى عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قلة نص عليها العهد القديم ووردت فى العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه فى المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذى تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنع الراعى . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون فى القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكى ينتفع بها الناس دون قيس . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسى ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكى المراق الأديناء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هكذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعينين (الذين عينهم لنا الله) فى جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا نخالطنا أية ريبة فى أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يرينا فى الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التي تزايد من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضي لا تكفي غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والحراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضي المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراعي من الحقول المشاعة والتي كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء لإلغاء تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأراذل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأ فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضل كلمة الله فإننا نراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس (١٨) .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التي وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأنكر مسؤوليته عنها وأشار إلى أنه كان يبحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشيكره على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والربان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضلاً عن هذا فلا أنكم في حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التثكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكي تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب في سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحقق بكم لا محالة إذا لم تصاحوا من وسائلكم في الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدي هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتخطيها بقتل الناس في قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويحبنا هذا المصير « (١٩) .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحتم على انتهاج سياسة تنسم بالرافة ، ووجهه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، ولكنه توسل إليهم أن يهجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين في وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أي ثورة سوف تصمم بالعار حركة الإصلاح الديني وأنه سوف يلام على كل شيء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق في فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحي يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبنائه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ أقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء في ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، فذلك لأن مملكة دليوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرين رعايا (٢٠) .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لخنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات واللوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلاً عن طغيانكم واضطهادكم حتى يقتنس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التي تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدراكهم (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلاً أو آجلاً في أية مصلحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا في الثورة . وتشبه بعضهم حرقاً بجلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت خدوم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبهوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب (٢٢) . وانهالت المطالب بالبريد من العمال في المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف في المدينة ، وباختلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم في الوقت الذي ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا في مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هبلر وفردريك فايحانت تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم في كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السمكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل (٢٤) .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الخانات هما جورج ميتزلر وميتزن فويرباخر ، وكان هناك جيكلارين ورورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصبة سيكنجن المهزومة — فلوريان جيير وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » وشاء القدر أن يقع اختيار هاوبمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلهما منهما بطلين لمسرحيات شائعة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فإن الثورة اشتعلت في ربيع عام ١٥٢٥ في اثنتي عشرة منطقة متفرقة في نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية في البلدية في هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة في فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذلك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفي روتنبرج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبله التي يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر (٢٥) . وتخلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثار غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سبيير وبامبرج وورهبان دير كيمبتين ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنبرجى أرقاهه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبرخت

الهو هنلوهى للمشول أمام زعماء الفلاحين للانخراط فى سلك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرنخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهما كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين » (٢٦) . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالى الريف بترحيب قلبى ، وأيد الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمتنون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة فى لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهى واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبايعوا فى سخرية واحداً من جمعهم أجاس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس (٢٧) . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصابة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفزع الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهى وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقيون فقد عفت العصابة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفى يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فايتسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير ورورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذى كان يمتته الناس بسبب قسوته وشدته . واقترب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجئ وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفى يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالى المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدحجين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهى ابنة الإمبراطور الراحل ماكسميليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر رورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو بجير ، أمراً للسبعة عشر رجلاً بالمرور بين صفيين من الفلاحين المسلحين بالحراش لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة في تدلل شوموم أن يبقى على حياة زوجها ولكن رورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشوة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حقله وسط وابل من الخناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخى في غياهب السجن لأنه لم يرفع قبضته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران في نير العبودية . . . لقد قطعت يدي والدي لأنه قتل أرنبا في حقله . . . لقد داس خيولك وكلابك وصيادوك محاصلي . . . لقد استنزفت منا آخر بنس لدينا » . وفي خلال نصف الساعة القادمة لقي الستة عشر فارساً حتفهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير (٢٨) .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشغب في كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم في خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « في كل مكان يجاهر الآثرون . . . بنيتهم في قتل كل رجال الدين الذين لا يتصلون من ولايتهم للكنيسة ويعلمون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكي تماماً من البلاد » (٢٩) . ولعل في هذا شيئاً من المبالغة ولكن في وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكروهوا الأرشيديوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس . وهو مطلب برونتاني شارس وذلك في بافاريا والنسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفي ماينزفر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العصاة وإن قام نائبه بانهاز كرسي الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثنى عشر وبيع ثلثه قدرها ١٥,٠٠٠ جيلدر ، وفي الحادي عشر من شهر أبريل رفض أن يلبس مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة في الألزاس انتشار النار في الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكي وكل مالئ ثرى فى المقاطعة يخشى على حياته . وفى الثامن والعشرين من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديرهم وفى يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبى وبأن يكونوا عرضة للعزل (٣٠) .

وفى بريكسين بالتيرول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلى (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين فى هذا العهد ممن كانوا لا يتعاطفون مع الثوار إنه فى جميع أودية نهري اين واتش كانت هناك — جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير فى الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحا شائعين إلى الحد الذى كان فيه الاتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما» (٣١) . وفى فرايبورج — أم — برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكروها المدينة على الانضمام إلى « الأخوة الإنجيلية » ، (٢٤ مايو) وفى الشهر نفسه أقصت عصابة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه فى مخازنه . وفى شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التى تشرف على المدينة ، وفى نيوشتادت فى اليلاتينيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض (٣٢) .

وفى هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكنّ لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفي وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل » . وأفرغت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة في ألمانيا وآلمته الاتهامات التي تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر في كتاب سابق على الحكم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولي تناسوا ما عرضوه وعمدوا إلى العنف وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمل إبليس (منتسر) الذي يحكم في ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم في هذه الظروف . . . »

إن أي إنسان يمكن إثبات شعبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتي معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتبتم الأطفال وتقلب كل شيء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أي إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سرّاً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شيء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذي يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضربه فإنه سوف يقضى عليك ومعلك بله بأسره . . . »

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوخ وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوخ إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه في الإصحاح الرابع . لأنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين في سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم ليرود - مشاعاً لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فما أروع هؤلاء من مسيحيين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان في الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين » .

أما الحكماء الكنائسية فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكماء البروتستانت بالصلاة والتدم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتشاق الحسام لأن أى أمير أو سيد يجب أن يتذكر في هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللتي يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع ... وإذا كان في وسعه أن يعاقب ولا يفعل - حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء - فإنه يبوء بلأثم كل جرائم القتل والشروع التي يرتكبها هؤلاء الأتباع وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعذبهم الضمير في الانفصال كالأبطال ما دامت قلوبهم تحقق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتذكر أن الثورة لا تحتل وأن دمار العالم أمر متوقع في كل ساعة » (٣٣) .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قراؤها في الوقت الذي بدأت فيه الطبقات المملوكة في إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الرقت يعللون الفلاحين البسطاء بالوعود والأمانى وبهذا أغروا الكثير من العصابات بالنزق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفي ذروة الثقة مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام ١٥٢٥) وكان رجلاً هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقي الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم في اتخاذ إجراءات الانتقام وترك لحذنه الدوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الحديد شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على اللين وهو أمر يخاف الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنرى دوق برونزفيك وفيليب لاندجريف الهسي وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفرقهم إلا عدداً . — كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء : بيد أن معظم الرجال في قوات الدوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأهمهم في الصلاة وفي ترتيل الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من النوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم والتمسوا العفو عنهم رحمة بهن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسى قسيسين كانا قد حرصا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان الدوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد^(٣٤) . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بغير ومعه ١٢٠٠ جندي عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بغير وباقي القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفى غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبلينجن (Böblingen) بطريق المفاوضات وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للثوار خارجها (١٢ مايو) . وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هذا على الثورة فى فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى فى بطنه جسد جيهكلين رورباخ الذى تزنىهم « مذبح فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين فى كينجزهوفن والنجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتمبورج وأطاح برعوس واحده وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبرة للآخرين (٥ يونية) . وفر فاوريان جوير من فيرتمبورج ليعيش فى غياهب الغسيان وظل أسطورة يرددها الناس فى إعزاز واستسلم جيتزفون برلينجن فى الوقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضده الأتراك ومات على فراشه وفى قلعته بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روثمبرج فى ٢٠ يونيه وسرعان ما تلتها مدينة ميمينجن وسقطت الثورة فى الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل فى ليشتلين وتسايرن (Zabern) (١٧ -- ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠,٠٠٠ فلاح فى الألزاس وحدها وفى كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت (٣٥) وأمر ماركجراف كاسيمير Markograt Casimir بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفى الحالات المخزنة قطع أيديهم أو سحل عيونهم (٣٦) ، وتدخل الأمراء العقلاء فى آخر الأمر فى تخفيف همجية الانتقام ، وفى نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابى فى أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال فى توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساعل شريف فيلسوف قائلا : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟ » (٣٧) .

واستمرت الثورة عاماً فى النمسا وفى يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسماير فى أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستاننت) الذين يضطهدون « كلمة الله »
الحقة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من
الكنائس وألا تتلى القداستات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون
وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين
والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف
دفع الإيجارات والمكوس للسلادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب
العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت للإصلاح الدينى
وللفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم
فيجب أن تؤتم وعلى الحكومة أن تحدد الأسعار (٢٨) . وقدر لجاسماير أن يهزم
التي أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير
الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق
فردينانده ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانين عند ما اغتلاه
فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى
حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى
ساحة القتال أو على نطع التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠٠٠٠
رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتألت أعطاف جنلاد تروخسيسس زهوا
لأنه قتل بيديه المدبوختين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون
أنفسهم فقد دمروا مئات القلاع والأديرة وأقفرت مئات القرى والمدن من
ساكنيها أو أصبحت خراباً بلقياً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد
ما يزيد على ٥٠٠٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون
فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيمم الآلاف من الأطلال واكن قلوب
المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت خاوية وكان المتمردون قد
أحرقوا فى كثير من الحالات الموائيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

للسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحييت من جديد هذه الالتزامات وكانت في بعض الحالات أكثر رفقا بهم وفي أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين في النمسا وبادن وهس أما في المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر في عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة في الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل في الموت .

واندثر الإصلاح الديني نفسه أو كاد يندثر في حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المتصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألفت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضنى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية »^(٣٩) واعتبر المحافظون نزاع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفي الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفزع ولاعهم للكنيسة الرومانية . وفي أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية^(٤٠) . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر المحن الإصلاح الديني وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليجثر » أى « الدكتور الكذاب » و« المناق صنيعة الأمراء »^(٤١) . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكي يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥ يونيو عام ١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقي والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتوعدوني بالموت »^(٤٢) .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفي يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس أمسد ورف يقول : « في رأي أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسطان إلى » (٣٣) . وفي يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثائرون في قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغي أن يأخذ الحكام بتلايب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك أنفسهم » (٣٤) .

« إذا دار بخلدكم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكريم أفواه الناس فلائي أجيب بأن هذا صحيح ، إن أي ثائر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه إن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفهم هو لكمة تدمي الأنف ، إن الفلاحين إن يصيخوا السمع . ففي آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطاقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ في حاجة إلى تأديب بمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلالاد عند ما يأتى ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا إن أسمع أو أعرف شيئاً واكنى سوف أهتم بإرادة الله التي تتضمنها كلمته . . . إذا شاء جل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تفيديك الرحمة ؟ ألم يأتكم شاول بإمداء الرحمة لعماليق عند ما فشل في تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عندما كان الفلاحون سائحين ، يقتلون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يفرعون لمرآتهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقصوا عليهم قضاء دبر ما ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين في شئونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفي الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصى آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا في حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التي تهتدها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهددون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف في مأمن منهم ولكن على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجال العار النساء والأطفال وسوف يتعودون أيضاً على قتل أحدهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان في أى مكان . هل سمع أحد عن شيء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عند ما تمتلئ بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكمون بالقوة » (٤٥) .

وقد تصدمنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعي توطئه بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهي أن عصابات الفلاحين تحول شكواها العادلة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بخرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع في ألمانيا . وبررت الحوادث تحذيره بأن الثورة الديدية التي خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التي كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشلة . وربما شعر بأنه مدين شخصياً بعض الشيء للأمرء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليه الحماية في كيتنبرج ورومس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من يثقده من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كثفت سلطة الأمرء عن حماية الإصلاح الديني ، والحرية الوحيدة التي رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هي حرية عبادة الله والتمس الخلاص طبقاً لما يمل به ضمير المرء .

وأية أهمية في أن يكون المرء أميراً أو عبداً في هذا الموجز للحياة الأبدية ؟
إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تدمير مرتبتين بالجسد والواجب ولكن
متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية
فحسب بل قال لأنها لن تسوء ولأنه سوف يحياها بابتسامة حتى لو غسل الناس
أيديهم في دماء الأساقفة ، ثم لأنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام
الاجتماعى للخطر بل ومنع من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يتم
بأى اعتراض على نزع السلطة الزمنية للملكية رجال الدين فكيف كان في
وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حق
التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة .
لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ،
وأثار فيهم الأمل ودفعهم إلى العمل ثم تخلى عنهم في الساعة الحاسمة . وفي
يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخرآ (٤٦) وعاد كثير منهم أو من أطفالهم
برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين
الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ - اللامعبدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ - ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التي صاحبت الأقليات المتدينة
الناثرة ، في تحزبها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية في
القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الخازوق ، إلا إذا لاحظنا
مدى الحماسة المتأججة التي يعتنق به معاصرونا الهرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعبدانيين (المعماين
من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء في

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يؤجل ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقى الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دزنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو في نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا في حياته^(١٧) ورفع ذلك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقدس ذاته . واتبع معظم اللامعبدانيين منهجاً تطهيرياً ، يتسم بتزمت في الأخلاق ، وبساطة في السلوك والزى . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستذكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحييتهم العادية « سلام الله عليك » وهي ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التي اتخذتها طائفة الكويكر . وفي الوقت الذي اتفق فيه لوثر وزونجلي وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الديني ، أخذ اللامعبدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيباير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤^(١٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع الدعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعده ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلمهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعبدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابوريين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمته^(١٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزواجات (٥٠) . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية في الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختياري المتبادل ، وعسكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة في ملكوت السماء (٥١) .

ولقد استلهمت كل جماعات اللامعمدانيين سفر الرويا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكسد كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار . وهم هنا كل الناس ما عدا اللامعمدانيين — بجلد سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يخشعهم الجلد في فردوس أرضى بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زاهر من أغلاب كل شيء (٥٢) . وعلى هذا فإن الناس الذين يحبوهم هذا الأمل ساءحوا أنفسهم ضد الكلدح ووحداية الزوجية .

وظهر اللامعمدانيون لأول مرة في سويسرا . ولعل مسيحية تدعو إلى السلام قد تسربت من ثورة الولدان في جنوب فرنسا والبيغاردي الأراضي المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما في بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعي . ولعل بعض الفقرات الشيوعية في « المدينة القضاة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقة زعماء لامعمدانيين وهم : كونراد جرييل وفيلاكس مانز الزيورنخي وبالتازار هبجار الوالد شوقي في حدود النمسا المواجهة . وفي ١٥٢٤ زار مينزر والد شوت وجاء كارتشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللامعمدانيين في زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بال تعميد عند البلوغ وبعجى المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخدمة العسكرية وضرائب العشور وتعريم حلف الجنين .

ولقد كان أولريخ زونجلي في ذلك الوقت يكسب إلى صفه مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التي تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد « الإخوان » أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد في الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل في تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعمدوا . وندد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجلي لقب التين العجوز ، وتظاهروا في الطرقات وهم يصيحون « الويل لزيورخ ! » (٥٣) . واعتقل زعمائهم ونفوا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت - مجول وابنتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيباير إلى صفه والدشوت بأسرها ، وجلس في ابنتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : « لا تحمل هما لطعامك » وأخذوا ينتظرون أن يأتي الله ويطعمهم (٥٤) .

وليس من شك في أن النجاح الظاهر الذي أحرزته حرب الفلاحين في ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، ولكن فشلها شجع طبقات الملاك في المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جرييل ، ثم هيباير ، وأمر بزج كل اللامعمدانيين المتشبهين بآرائهم في سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن « يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم » (٥٥) . وحدث هذا لجرييل وأغرق مانز ، أما هيباير فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ، وأنكر رده وأخذ يدعي عاقبه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر في كونستانس بتهمة اللامعمدانية والزنى — وأظهرت المقاطعات التي تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً في قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق في سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ،

وفي غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، في أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلي ، وحولهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز ذلك وهبماير في أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قارن كثير من عمال المناجم في التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هوخشتير ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللاهوتية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما في ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضاعف دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيباً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأثنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله » (٥٦) . وفي هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظيمة . وصدق مجلس سبيير Speyer النيابي (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللاهوتيين أينما وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعداني تحقيقاً عن النتيجة ، ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على الخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منشوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكاشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار . . . وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رؤوسهم بالسيف أو ألقي بهم في بركة الماء . . . ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا في غياهب السجون المظلمة . . . واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات في غياهب السجون . . . وختمت على خدودهم أرقام تركت فيها أختايد . . . أما الباقيون فقد طوردوا

كاليوم والغربان ، التى لا تجروا على الطيران بالنهار واضطروا فى أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو فى الغابات أو فى الكهوف والحفر (٥٧) . . .

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمدانى قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفى انزيسايم ، إحدى مدن الألزاس أعدم ٦٠٠ ، وفى سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد سادهم على نار بطيئة حتى لاقوا حتفهم (١٥٢٨) (٥٨) . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التى استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفي هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمال ألمانيا . ورحب بعض الأشراف فى بروسيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادى الفيرا فى ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا فى أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لهداية الناس المشرفين على الهلاك . وفى ليبك سيطر جيرجن فولنفيغر المتهم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ - ٣٤) ، وفى مورافيا أحرز هيباير تقدماً لعقيدته المعتدلة التى فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن « على المرء أن يطعم الجائع ويروى ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا فى الحقيقة لسنا مطلقى التصرف فى ممتلكاتنا ولكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب » . وكسب هانزهوت (٥٩) ، الذى ألهمته تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين فى مورافيا من هيباير بتبشيرهم بشيوعية كاملة فى الأمة . واعد هيباير إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية وألقى بزوجته وهى مقيدة الأطراف فى نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيعياً فى أوسترايتز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون ، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون في أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضي حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدحهم الواعي . وكانوا يقومون بالمشاركة في الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة وللحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقي طبقاً حاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوي على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيوعي بمرسوم إمبراطوى صدر عام ١٦٢٢ في حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى المجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفي الأراضي المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمداني لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس في ليدن إلى الرأي القائل بأنه لن يكون في الوسع الانتظار في أناة لمجيء أورشليم الجديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد في أرجاء هولنده اثني عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان يويكلزون المعروف في التاريخ باسم جون الليليني وفي أوبرا ميير بير باسم « النبي » . وكان . دون أن يتلقى تعليماً نظامياً : حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه ، ونظم الشعر ، وعند ما وقعت في يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التي تختلف عما كان ميلها وزن قد حصلها وفقدتها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك في الرابعة والعشرين من عمره وفي تلك السنة قبل دعوة مشؤمة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهلة بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذي تمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدث فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعي أن تسيطر على المجلس .

وفي عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا في غمرة حماسها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وبخبر من الباقي وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرتة . فجاء جون الليديني (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . وخشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكي يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهليون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليديني في الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنير دولنجاك وكيبشرويك عمدتين وبدأت التجربة المنزلة .

ووجدت منسّرة نفسها على الفور في حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفي حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد في ألمانيا ضدها . ولكي يحمي المجلس الجديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضى بأن يخير جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة في قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألقى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبي ولجنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاهما زعماء من رجال الدين . ولقي ماتيس حتفه وهو يقاتل في هجوم فاشل لفلك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون الليدينى حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التى أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية في الداخل بتفاوت الأمن في الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التى لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية (١٠) ، وكان براودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التى وردت في سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء لجنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثني عشر لإسرائيل ، وأصبح جون الليدينى ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل في أذهان البسطاء معنى من معانى الوفاق المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، واتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين في الوقت الذى أشرف فيه الأهالى المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة » (٦١) ثم ماتوا جوعاً في شىء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية في منستر محدودة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الخصوم أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع (٦٢) ، ولكن في الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً في كل شىء ما عدا المحوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، « ولكن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ إصحاح من الكتاب المقدس وتُنشد أناشيد قلدسية . وعين ثلاثة من الشهاسين لإمداد الفقراء بمحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة (٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيليات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التى تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصدروا أمراً يستند إلى السوابق في الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رفيقات للزوجات - وكن في واقع الأمر حظاً (٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتي ارتبطن حديثاً قد تقبلن الموقف على أساس أنه أفضل من العيش في عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين في المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقي جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الحمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعمدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً في انتصار القدس الجديدة واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عدة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان^(٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم في خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسرون وراءه في هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط في خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن ، وعندما طلب « رسلاً » لاقتحام الطريق اطلب العون من جماعات اللامعمدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلاً أن يخترقوا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعاً وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتياي الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعمدانيين في ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفهم الأخوية في منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استجابة للثورة . ونمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعمدانية دعت فيها بنجاح اللامعمدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقها كلها بدداً . وفي الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعمدانيين على دير في وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التي استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية في كل مكان . وها هو لور الذي كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع المراطمة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم « كفاراً بل بوصفهم من كبار مشيرى الشعب » (٦٦) وأذعن ميلانكتون ، وأرسات مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف . وأصدر المجلس النبائي في برمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بنرض ضريسة على كل ألمانيا لتمويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويعمرها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملك جون المجاعة ونخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانتهر الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدي جنود الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة من أداء خدمات مختلفة . وأنقذ أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتحمت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت المجاعة قد أنشبت أنيابها في المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمتاريس في السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون اليلديني واثنان من أعوانه على الساريات ، وخش كل جزء من أجسادهم بكماشات متهبة إلى درجة الاحمرار حتى « أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً في السوق من الرائحة الممتنة » ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعت قلوبهم بالخناجر (٦٧) ٥

واستعداد الأسقف المدينة ، وزاد سلسطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشى اللامعمدانيون في أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو في طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء المراطقة المسالين . وأشار ميلانكتون ولوتر على فيليب الهسي بإعدام كل من انضموا إلى الطائفة (٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادي والسياسي الذي توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الآلاني (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة — التي لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكي اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جليلاً ، إلى حد أن «المينونيين» عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة في هولندا وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين في القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والإيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التي اتخذت أشكالاً متعددة (٦٩) في سويسرة وألمانيا وهولندا .

وتنترك هذه الجماعات تقريباً في صفة واحدة ، وهي تصحيحها على تقبل العقائد التي تخالف عقائدها في سلام . وأن علم اللاهوت الذي ساندتها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصددتها وولائها ومسامحتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فوج من اللامعديانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بلسلفانيا ، واستقر في جرمانتاون أو بالقرب منها . هؤلاء الدوفاكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٢٠٠,٠٠٠ . وفي عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللامعديانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافي ، واستقروا في جنوب داكوتا والبرتا .

وفي شرق بلسلفانيا لا يزال المينوليون الاميفيون - وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش في القرن السابع عشر - يرفضون رسمياً استخدام الأمواس والأزرار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لا يستخدمون الجارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تليقاً في أمريكا ، ويبلغ تعداد المينوليين ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٩ .

الفصل الثامن عشر

زونجلى — الإصلاح الدينى فى سويسره

(١٤٧٧ - ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير فى القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية فى صد الهجوم الذى قام به شارل الحسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جاذوة اعتزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التى قام بها ماكسميليان لإخضاعها اسماً وفعلاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثارّت منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابى وهو نيكولاوس فون دير فلو — الأخ كلاوس فى الذاكرة السويسرية — أقنعها بأن تركز إلى السلام .

وانضمت مقاطعة لآثر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبات فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عشرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهجات الألمانية — ما عدا فريبورج ورن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية — جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شؤونها الداخلية ، أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عمامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابى الاتحادى تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كامامة ، فقد

حُرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقليمي من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجاً يحتذى في حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ - ١٥١٢ فرصة تفككها وحدة إيطاليا ، واستولت على بليزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت في تأجير خدمات الفرق السويسرية - بموافقتها - للسلطات الأجنبية . ولكن الانجاد تخلى عن التوسع الإقليمي بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية في موقعة مارينانو Marignano (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياد ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكثيرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات في التاريخ .

وكانت الكنيسة في سويسرة لجنة العريكة وفاسدة . كما كانت في إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازاموس في بازل ، ومنحتهم قسطاً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقي ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسة السويسريون بالحظايا^(١) . وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع في عام واحد ١٥٢٢ جيلدر من هذا المصدر^(٢) . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويشملون علناً^(٣) ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، في الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيورخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ، ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى في عام ١٥١٠ على أن يدير مجالس المدينة في جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة في نطاق سلطته^(٤) ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الدينى كانت قد تحققت فى زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهى سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التى رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ - زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطردة التى تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون فى بيوت متواضعة ، ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جانبهم التفوق حياتهم (أول يناير عام ١٤٨٤) فى كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التى تربض فى واد جبلى على بعد خمسين ميلاً جنوب شرق زيوريخ فى مقاطعة سانت - جولده الحالية ، سقف جملونى منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطئة ، وحجرات مظلمة ، ودرجات تحدث صريراً ، وأسرة متينة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ، وهذا البيت التاريخى يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعى فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الحارق للطبيعة فقد كان يبدو أملاً لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة فى هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معترزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف فى كنيسة قرب فيزين ، فى تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل فى أن يكون زونجلى نزعاً إنسانية وإتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعند ما بلغ الصبى العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية في باويل ، وفي الرابعة عشرة دخل كلية في
بون رأسها أحد الأهلين من أنصار الكلاسيكية المبرزين . ودرس من السادسة
عشرة إلى الثامنة عشرة في جامعة فيينا ، في الفترة التي ازدهرت فيها
للدراسات الإنسانية ، في عهد كونراد سيلتس : وكان يسرى عن نفسه
ما يلاقيه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناي والسنتير .

وفي الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد
توماس فيتنباخ ، الذي هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صهوك الغفران وعزوبة
رجان الدين والتداس . وحصل زونجلي على درجة الماجستير ، وهو في
الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول
قداس له في فيلدهاوس وسط الأقارب المبهجين ، واشترى بمبلغ مائة
جيلدر جمعت له وظيفة راعي أبرشية (٥) في جلاروس على بعد عشرين ميلا .

وهناك تابع دراساته في الوقت الذي كان يؤدي فيه واجباته بغيرة
وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقراء العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة
مؤلفات هوميروس وبندار وديموكريتيوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر
وليبي وسينيكا وبليني الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقا على مؤلف لوسيان
المشكك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ،
ويوصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقرا
إياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل
أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر
يقطرته من التطرف في العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأي القائل بأن قداى
الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط
أبو مسينيكا حظه المقدمور ولا يتلقى الإنعام من البابا » (٦) . ولم يسمح ليهود
الكنهنوتية بأن تحرمه من ملذات الجسد ، فكانت له علاقات مع ساء
متبرخصات ، وظل منغمسا في ملذاته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعبأ بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين في جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية في جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما في وسعه لكي يحمّل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب في المعارك التي دارت في نافارو ومارينيانو ، جعلته يعارض بشدة أى تدبير لبيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفي عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسي في جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلى إلى أبرشية في أنزويدان بمقاطعة شفيتز . وهنا اصطبغت عظمته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، ونادى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كثير الأساقفة الكاردينال ماثويس شير أن في الكتاب المقدس أجازة ضعيفة للبابوية ، ولقد هاجم في أغسطس عام ١٥١٨ مساوئ بيع صكوك الغفران . وحرّض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذى أقاموه للعدراء ، والذى يعود عليهم بالربح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحماس بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التى اقترفوها ولعفاتهم من العقاب أيضاً » (٧) . وعاد بعض الحماس من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفي العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » في جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى في زيوريخ أعظم المدن السويسرية جرأة ، وكان في ذلك الوقت يقترب من النضج في الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليونانى ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذى لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من اللصوفية ، التى أسهمت في تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح
النسب ، له صوت شجي ، يستولى على ألباب جموع المصلين في كنيسة ،
ولم يكن يضارع لوثر في الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت
مقنعة ، لما تتسم به من صديق وصفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ
بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضد
بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز في أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون
الراهب الفرنسيسكاني من ميلان (Bernhardin Samson) مضيق سانت
جوتار ، وأصبح تيسزل سويسرة . وقدم صك غفران من البابا ليو
إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع
بنسات ، وبتلوينة من يده أعني كل الأرواح التي هلكت في برن من عذاب
المطهر . واحتج زونجلي ، وظاهره في هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ،
ولما كان ليو العاشر على علم بشيء من الأحداث الجارية في ألمانيا ، فقد
استدعى رسوله المتلاف . وفي عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون في زيوريخ ،
وقضى على ثلث السكان في خلال نصف عام . ولازم زونجلي مقره ،
وواصل العمل ليلا ونهاراً في العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى
المرض ، وأشرف على الهلاك ، وما أن عوفي حتى غدا أعظم شخصية في
زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهاني بعض الشخصيات المرموقة ،
التي تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بيركهايمر وديزر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً
للقساوسة في جروسهنتستر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن
ينادي في سويسرة بالإصلاح الديني .

٣ - إصلاح زونجلي الديني

ولقد تغيرت شخصية راعي الأبرشية في كنيسة ، دون وعي منه تقريباً ،
وإن كان هذا التغير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادي . . . كانت
الموعظة قبله هيئة الشأن ، ويكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلي الموعظة المسيطرة في إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى في النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس « عن الكنيسة » ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقدسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء في الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذي يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعيّنين في نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه في الكتاب المقدس . وفي عام ١٥٢١ أقنع زونجلي المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعند ما استمر الكاردينال شير في تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلي لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها « إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقربين يقطر من ثيابها » (٨) . ولما لم يجد في العهد نصاً يحرم اللحم في الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلي في كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أردبتهم ، ويموتوا في جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان في إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له في الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائي من الكنيسة جملان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايلك في ليبزج ، وكانت لهما أصدقاء بعيدة في جادل أنصار الفلسفة الكلامية في جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يرونها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلقى أذناً صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتيال مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة في قاعة المدينة ، للاشتراك في الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ — يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ — يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها في وضوح وجلالة . . .

١٧ — المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون في الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ — أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القداس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب . . .

٢٤ — المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا في جميع الأوقات كل أنواع الطعام . . .

٢٨ — كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ — لا أساس للسلطة الروحية التى يطلق عليها اسم (الكنيسة) في الكتب المقدسة وفي تعاليم المسيح .

٣٥ — إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (إصحاح لوقا ٢ — ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١) . . .

٤٩ — لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعى على القساوسة ، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧ — إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر . . .

٦٦ — على جميع الرؤساء الروحانيين أن يبادروا بالتوبة ، وأن ينصبوا صليب المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلمبة موضوعة على الجذر (٩) .

ورفض جوهان فابر — الأسقف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلاً ، وطالب بأن تطرح أمام بجامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلي أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك فى متناول الناس باللغات الدارجة ، صار فى وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يمكن . . . ووافق المجلس وأعلن أن زونجلي برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت فى زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً فى الكتاب المقدس . وهذا تولت الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا فى عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة — بعد أن ضمنّت لهم الدولة الآن رواتبهم . أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعمدوا باللغة الدارجة وأغفلوا أمر القداس وتحلوا عن تقديس الصور . وبدأت عصبية من المتحمسين فى إتلاف الصور وانتمائيل بلا تمييز فى كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلي من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرجت (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلي . إعدام كتيب يتضمن تعليمات . توضح العقيدة للناس . وأن يتوقف فى صفوفهم ذلك العنف بجميع صورته . وألف زونجلي بسرعة « مقامة قصيره فى المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين فى المناطقه .

واحتجّت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية . وأيدها فى الاحتجاج المجلس

النيابي للاتحاد الذي اجتمع في لوسون (٢٦ يناير سنة ١٥٢٤) ، في الوقت نفسه تهيئ بالقيام بإصلاح كهنوتي ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلي عقيدته بتوسع في رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقي والزائف (*De vera et false religione*) (١٩٢٥) و (*Ratio fidei*) (١٥٣٠) وقبل لاهوت — الكنيسة الأساسي — إله ثلاثي التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقنوم الثاني ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة لثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن في طبيعة الإنسان (١٠) . وقد اتفق في الرأي مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق في الرأي أيضاً مع لوثر وكالفن في موضوع القدر : كل حادث وبالتالي المصير الأزلي لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التي بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمل ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة » مهنة مريجة لمن ابتدعوه (١١) وليس في الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرايين المقدسة فلمنا ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله والاعتراف السري لا ضرورة له ، وليس في وسع قسيس أن يغفر لأحد — خطيئته — فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمناعبنا إلى قسيس (١٢) . وليس العشاء الرباني ، أكلا فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلي على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التي

يقرها الإصلاح الدينى ، وناول القربان بالخبز والنبيذ معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرات فى العام . وفى ذلك الاحتفال العرضى أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلون به باللغة الألمانية فى سويسرة . أما فى باقى السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبى وقدرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضرورى أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلاً لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والسلوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التى قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية فى سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة لىوجود لإعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاو عام ١٥٣٤ فى زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر — وهى خير منها — بأربع سنوات .

وفى امثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليد اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرغن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلى الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلاً كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان ضعيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيباً للاستسلام لخرافة والوهم بحيث يستحق الإتلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلاً ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر خلف زونجلى إلى أن يحزن لفقدائها . وكان لزونجلى نفسه موقف متسامح من التماثيل التى لا تعبد باعتبارها أصناماً بخارقة الصنع^(١٢) ، ولكنه صفع عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام^(١٣) ، وسمح للكنائس القروية فى المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكاثوليك ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا فى الوظائف

العامّة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرم^(١٥) مبدأ أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أدرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهن ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التي كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الديني ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقي ، في عهد زونجلي وفي زيورخ ، تفوق ما بلغه في عهد لوثر وفي فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، في نوفمبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التي كانت تعاني منها الحكومة ، وتم بين زونجلي وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلا ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشؤون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس في كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلي بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن في الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق في زونجلي ، كما تحقق في كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبي الذي يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلي هذا النجاح التام والسريع في زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة في المقاطعات التي تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكّل الحديد للعقيدة القديمة ؟

٤ — إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الديني « الاتحاد » ويبدو أنه قدر له أن يقضى عليه .
وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والجريزونيون أن تناصر زيورخ ،
أما باقي المقاطعات فقد ناصبتها العداء . وكونت خمس مقاطعات — وهي
لوسرن وأوري وشفيتز وأونترفالدن وتسوج — حلفاً كاثوليكياً لقمع كل
الحركات الهسية واللوثرية والزونجلمية (١٥٢٤) ، وحث الأرشدوق فرديناند
النساوى كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعداها
بتقديم المساعدة . وليس من شك في أنه كان يطمح في أن يستعيد سلطات
آل هابسبورج في سويسرة . وفي السادس عشر من يوليو وافقت كل
المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية
في المستقبل . وردت زيورخ وزونجلى على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة
ثورجاو لإعلان الإصلاح الديني . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن
بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا في حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم
التماثيل في عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثار
روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور في بازيل
خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعد سماع وعاظهم ويخرجون من
الكنيسة « كرجال تماكتهم جنة » ، يرسم الغضب والهياج على أساريهم « ،
كمحاربين يسرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوى » (١٦) . وهددت ست
مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلى ، وقد أعجبه القيام بدوره الجديد كقائد حربي ، على
زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد
التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

في التيرول وبعده تورجاو وسان — جال بمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكي السلام بثلاثة شروط : —

أن يسلم لزيورخ دير سان — جال الشهير وأن يتخلّى عن الحلف النمساوى وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورر الهجاء اللوسرنى ، الذى طالما وجه نقداً لاذعاً فى كتاباته للمصلحين الدينيين . ويخبر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثلها فى سان — جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) ونخعت حدة التوتر فى فبراير لإثر أحداث فى بازيل .

كان زعيم البروتستانت فى « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذى أسبغ على اسمه صفة الحليزية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه فى إتقان اللغة العبرية إلا رويخلين ، وذاع صيته كمصلح دينى وأخلاقى رقيق العاطفة فى كل شىء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره فى كنيسة سانت مارتين ، وفى كرسى الأستاذية اللاهوت فى الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوى كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العذراء . وحياة لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلي الذى يشمل اضطهاد اللامعمدانيين ، ولكنه رفض التسليم بالقدرة وعلم الناس أن « خلاصنا يأتى من الله أما هلاكنا فمن أنفسنا » (١٧) . وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القداس .

واجتمع فى ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل فى كنيسة الفرانسمكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكاثالكة من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس فى الأمر ،

وفي اليوم التالي أقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعهد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينية التي وجدوها (١٨) . ووصف أرازموس الواقعة في خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهاوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أدنى إساءة . أنهم لم يبقوا على تماثيل واحد في الكنائس أو في الدهاليز أو في الأروقة أو في الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقي في النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقي حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شيء بدافع الحب أو المال (١٩) .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القداس إلغاء كاملاً ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس رينانوس وكل الأساتذة في الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفي مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظامه في مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيلى الجللاروسى في كايل ، التي تقع على بعد عشرة أميال جنوب زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل الهدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك في أن الأمر ينطوى على خيانة ، وآثر أن يتقدم بحيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هم وجنوده ، الذين تأخروا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين رين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابيل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجبها على دفع تعويض لزيورخ ، وإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى « الأراضى المشتركة » التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فلإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع ، وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته لخاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية - أولم وأوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت - على - الماين وشتراسبورج - تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأويكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شامى فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سحاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه بتشككك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متأسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصافح اليد التى مدّها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجاسد » ، وأقنع الأمراء اللوثرين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر (٢٠) . واتفق ميلانكتون فى رأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة (٢١) . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حث لوثر الدوق البرنخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبديّة .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجناز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانها الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكي متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف يذوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى ، وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوته الضئيل في الحكومة ، وفقدت عظمات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذى طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية في مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

ونخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته *ratio fidei* إلى شارل الخامس ، الذى لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفى عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسيس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية » ، وفى هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموسى بأن أى مسيحى سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرسنيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخصصة ، منذ بداية العالم إلى نهايته ، ان تراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة القواد وسموا بالروح من هذا المنظر » (٢٢) . وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثنياً » (٢٣) ، واتفق الأسقف بوسويه فى رأى فى هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى (٢٤) كافر لا أمل فى إصلاحه .

واجتمع فى ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية فى كايل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) — جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ — واشتبك الجيشان فى هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث (٢٥). وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر (٢٦) » وانتصار لنا « (٢٧) ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبي لو أمكن لإنقاذ حياة زونجلى ولكنى أخشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به » (٢٨) .

وخلف هينريخ بولينجر فى زيورخ سلفه زونجلى ، أما فى بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض فى الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتنقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود فى صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلا كاملا التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩) **Consensus Tigurinus** الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت فى السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة فى سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها فى كايل ، وليس من شك فى أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها فى التاريخ إنما يتم بالتنافس فى المذبحة أو فى إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات — وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسرج وأوفر فالدين وغريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهى زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العميدتين لا يستقر رأياها على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالتين تشودى ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية — من الكتاب المقدس لا غير — فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امروء أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسحيون .

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ - لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التي شهدت مهد الإصلاح الديني ، نرى لزماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ في ألمانيا أن يتمكن رجل واحد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات في ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا في حاجة إلى المبالغة في دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسماً آخر لها ، إذا استمر لوثر في خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف في شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضده أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة في أوروبا ، يجعل الدم يغلي في العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التي قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

تري كيف بدا ذلك الرجل ، الذي كان صوت عصره المدوي ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألماني ؟ لقد كان في عام ١٥٢٦ ، كما صورته لوكاس كراناخ^(١) ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره في مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسمة وإن لم يخجل من لمحة مرح قوية ، وله شعر يجعله لا يزال حالاً السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان— قال خديسومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سمعة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر في هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلّى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن ارتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكّت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلق إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق في الرأى مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطرى وضرورى كالطعام^(٢) ، واحتفظ بالفكرة السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى في الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»^(٣) ، وندد بالعذرة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التي تقضى بالتناسل والتكاثر . وإذا «لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح»^(٤) . وكان يعد طريقة البشر في التناسل منافية للعقل بعض الشيء ، على الأقل عند تأمل الماضي ، ورأى أنه «لو استشارني الله في الأمر لأشرت عليه بأن يستمر في خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم»^(٥) . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانياً ، فالله قد خلقها للحمل والطهي والصلاة . لا لأى شيء آخر ، وهو القائل «انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشيء»^(٦) . و «إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس في هذا ضرر ، دُعهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا»^(٧) . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلتزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال بيناتها أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه^(٨) . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكى وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع^(٩) .

وكان لوثر يكنّ كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينبن بشقة »^(١٠) ، ولكنه ازدري الكتاب الذين ألفوا مقالات في هجو النساء ، وقال : « مهما يكن في النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن في الخلوة برفق . . . لأن المرأة قارورة هشّة »^(١١) . وعلى الرغم من صراحته الفظة في أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجمل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن ترسل شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يسقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »^(١٢) . (وكان هذا حرياً بأن يجعله أكثر ليناً مع البابا اسكندر السادس الذى عشق شعر جوليا فارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال في نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلاً لكي يستقر على رأى في هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق في آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت في أن توقعه في حبالها ، وعملت مربية لكي تكسب ما يسد رمقتها . واقترح عليها

لوثر أن تزوج من الدكتور جلانز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر في الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين في السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت في السن يحرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة ، وهكذا تزوج الراهب السابق في ٢٧ يونية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة .

ومنحهما الأمير الخنثار الدير الأوغسطيني الكبي . . . منه مقررًا لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلد (٧,٥٠٠ دولار) في العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ، وأحببها وأنجب له ستة أطفال ، وتعهدهم بالرعاية في إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسماك ، وحديقة للخضر ، وربت له اندواجن والحنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن في وسعها أن تضعه في موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التي تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسلم من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشريها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصنة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له في شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للإنسان زوجة تقية رقيقة ، تخشى الله ونحب البيت » (١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالقطرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا » (١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ، وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألماني .

ولإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً في الحرب ، فإن شجاعته قد انهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها » (١٥) . وكان يتلو الصلوات ليلاً ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه لى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شأنت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر » (١٦) . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، إنك تحبين أن تظلى هنا مع أهلك . أتريدى أن تذهبى لى ذلك الأب الآخر ؟ » . فأجابت لينا : « نعم يا أبتاه كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكأها طويلاً بكاء مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلاً كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحبين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن » (١٧) .

ولم يقنع بسة أطفال فآوى فى بيته كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم لى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم لياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والدكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً لى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المجادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . ونذكر ، أولاً وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

دواء ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطياب الطعام وشراب الجعة ، أو استمتاعه المثمر بكل المباهج ، التي استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً في هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون في عصر النهضة ، ولا الألمان في عهد الإصلاح الديني ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصدمنا بحديثه الفسيولوجي الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرط في الشراب . ولكنه كان يبدي الأسف ، ويعمل الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالنبيذ بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً في تلك الأيام الخوالي ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه في السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لي أتي صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملني لأنني أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكي أكرمه » (١٨) .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً في الحماسة لا يبدي أية مجاملة لخصومه ، ويتشبه بالخرافات ، في الوقت الذي يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه في الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلافة أو مثلاً أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلاً « لم أكن أتوانى عن الانقضااض على خصومي بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ » (١٩) وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قذارة وروث (٢٠) ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعتهم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفر « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دمع لإنسان « بشاره

البهم في سفر الرويا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين
أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر » (٢١) . ولنا أن نتصور
إلى أى حد كان المستمعون إليه يجدون متعة في هذا العبث . وقد قال : « إن
الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذى اضطرب البابا إلى إعفائه من رقابته هو
العَجِيز ! » (٢٢) وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين
لا يكاد يتسع لكى يغرق فيه كل عصابة المعتصبين الرومانيين الملاعين . . .
من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان » (٢٣) أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى
بأن يرسل عليهم صيِّباً من النار والكبريت كالذى قضى على سودوم
وعمورة » (٢٤) ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذى صدر من الإمبراطور
جولييان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت غاضب » (٢٥) .
ولكن لوثر عجب مثل كلايف لاعتمداله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنى شديد
الشراسة ضد البابوية ، ولكنى على النقيض من ذلك أشكو من أنى ، الأسف
لن العريكة إلى حد كبير . وكفى أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ،
وأن تكون كل ريح صاعقة (٢٦) : ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثوى
في لحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهندبة . . . لأنى لا أستطيع أن أصلى دون
أن أصب اللعنات في الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك
اسمك » فلأنى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » .
وإذا كان ثمة ما يدفعنى إلى أن أهتف « لتأت مملكته » فلأن مضطرب إلى أن
أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنى أتلو
صلواتى سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً في قلبى دون توقف (٢٧) ، ولأنى
لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنى أستطيع ،
عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلى ، وأن أعظ على خير وجه ،
لأن مزاجى بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة » (٢٨) ، ومثل هذه العاطفة
البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة
قائلاً : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسائل من طائفة المحافظين كانوا

يضارعون لوثر في هذه الناحية» (٢٩) . وكان الطعن متوقعاً من المتصارعين في مجال الفكر ، ويستطيعه المستمعون ، وكان الشاك يخامر الناس في أن الأخلاق المهذبة دليل على الجبن . وعند ما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجي العزيز » — رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس » (٣٠) وإن جواباً ليناً يمكن أن يطفىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقلب البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتدكب معركة مميته مثل هذه . وقد اقتضى الأمر بجلداً صفيقاً — أغلظ من جلد أرازموس -- لنهذ الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقتضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، ففي أواسط عمره كان مثلاً أعلى في الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم في حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنق في ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلا منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التي كانت تتبع زعامته . وعند ما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التي يفهمونها . وكان المداعبة مسحة رقيقة إذ كانت نخشنة مريحة متحللة من كل القيود ، مثل دعايات « رايلي » ، وقال شاكياً : « إن أعدائي يفحصون عن كذب كل ما أفعل ، فإذا ضرطت في فيتنبرج فلنهم يشمون ريع الشرطة في روما » (٣١) . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات » (٣٢) . وليس من شك في أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعايات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذى تنفوه بمثل هذه الدعايات كان يحب الموسيقى وهى هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذى ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة . وأسلمها — وفى هذا تحامل لاهوتى كان راكداً لحظة من الزمن — إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل فى الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أتخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة مقابل أى شىء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة القواد » (٣٣) .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن باللين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقي مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعند ما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يذوى من أثر الوسواس الكئيبة حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً فى مرح أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق فى الخطايا إلى أذنيه » ، ولكنه يسخر من المفتى المصاب بفقر الدم (٣٤) ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاج العارض . وثمة أمر واضح فى جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هى أن نأكل ونشرب ونمرح » (٣٥) . ويقول : « إنى أنشد المتعة وأقبلها حينما أجدها ونحن نعلم الآن ، ولله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضائرينا مرتاحة » (٣٦) . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول (٣٧) ، التى لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكى تعلم الدماء بين

الصحية ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسي لا مانع عندي من حضوري معهم في بعض الأحيان ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً في الرقص لو أنني فعلت » (٣٨) . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : « يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس » (٣٩) .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحيحاً باعثاً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن « كل النوازع الفزارية ليست بعيدة عن الرب أو ضده » (٤٠) ، « وأن كل تسعة أرواح من عشرة قد عليها الله أن تخلد في الجحيم » (٤١) . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى سجد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عفن شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير في فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، في الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع (٤٢) البرية الحية على الشفاء ، والكوايبس الخبيثة ، التي تبحث عن العذارى في حمامهن أو في مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعن بهن إلى الأمومة (٤٣) . ونخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك في حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها « تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة » (٤٤) ، « وأعجب بما توصل إليه الفلك في جرأة في مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه في هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقي في الفلك ، باعتباره مناقضاً للكتاب المقدس ، وأصر على أن العقل يجب أن يلزم الحدود التي وضعها له العقيدة الدينية .

وليس من شك في أنه كان محقاً في حكمه الذي يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلاً بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه جبراً على الكل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلى ، بينما كان أرازاموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب — وقتذاك فى كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك فى سبيل الرب ، فأصبح له الحق فى أن يسمع وقتذاك كطفل ضل فى فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف فى جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « لئى أحتمل حقله العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانته . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! » (٤٥) وكان لديه من الشجاعة ما يكفى لأن يتحدثى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلد ما يدفعه للشك فى صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغى عليه أن يفعل .

٢ — الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته و يقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التى اتهم بها البابا ليو العاشر فى منشوره *Exsurge Domine* لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس » وفى خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق فى أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفى ضوء فهمه الشخصى (٤٦) ، وأضاف قائلاً : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق » (٤٧) وفى مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : —

إن الله هو المتصرف فى الروح وإن يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكى يرى نبلاؤنا وأمرأونا وأساقفتنا إلى أى حد تبلغ حماقتهم ، عند ما ينشدون

لإكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والهرطقة لا يشندان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله (٤٨) .

وفي خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منتسر وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام . يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية للصدام العمول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفي عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للمعمدانيين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتفى بنفيهم (٤٩) .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى في عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفي . حقاً أنه تحدث في هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يغرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم . بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطائية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب في يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفي شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة في أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض في « تخويفهم » قليلاً لتحسين لاهوتهم (٥٠) ، وفي مايو عام ١٥٢٩ أدان خططاً ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفي أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلقي الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أى إنسان على اعتناق العقيدة » (٥١) .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابى مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعته أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائيين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمقى ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحى إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهودياً ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمقى يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعى أن أتوقع في هذه الحالة أن يجيشوا إلينا زرافات ووحداً » (٥٢) . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت في بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودى ، وذلك في رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يقيم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضى فائدة على أن يتقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفى جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط في الأمر . وفي كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعاً من قطعة قماش واحدة » (٥٣) . واشتغرق في سنواته الأخيرة في نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبيثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم حتى تنقوض دعائمها ، وقال : —

ودعوا كل من يستطيع أن يلتقي عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان في وسع أحد أن يقدفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . . وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً . ولنحطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولنتنزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلتقوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق في وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكتزون من الذهب والفضة ، ولتوضع في الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة^(٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففي عام ١٥٢٢ كان لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : «إني لا أقبل أن يحكم على عقيدتي أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل آمن لا يتلقى عقيدتي بالقبول ان يستطيع الخلاص»^(٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين العقيدتين ، وقال : —

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يباحق بها ضرراً . فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى ردودنا ، فإذا ما اهتموا فيها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكي نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا نعانى من التعاليم المتناقضة في نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة في الكنيسة ، والتلازم معها في ظاهر السلوك»^(٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية في أن المسيحيين في حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحق ، التي

يستطيعون أن يحبوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة في القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعفت بكثرة الطوائف الجاحمة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التي نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبي ، وقال شاكياً : —

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائي مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً في اللاهوت » . وآله ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقول فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، في العقائد والأخلاقيات ، وانتهى في الرأى مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعى فى حاجة إلى شىء من حسم المناقشة ، وشىء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة » فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هى الكنيسة نفسها لأن الكائن الحى وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغارة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمراً صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام المrapقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تحفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك فى حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتله لا بحالة ، ويجب أن تكون يدك هى أول يد تنفيذيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة فى إبادة طائفة الإلبيجنسن فى القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التي عاملت بها الكنيسة من يخالفونها في الرأي ، ولكنه سار قدماً في نطاق وحدود سلطته ، لإفحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفي عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة في ساكسونيا وبراندنبيرج لسحق « العتائد الخبيثة » التي يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلي ، وفي عام ١٥٣٠ نصح ، في تفسيره للزمور الثاني والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهرطقة ، الذين ينادون في عظاتهم بإثارة الشغب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون في تعاليم مادة واضحة في العقيدة . . . مثل المواد التي يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التي تقول « إذا نادى أى واحد في تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان » (٦٠) . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية في التعبير عن الرأي والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد في الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلي إلى كارلشتادت في وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح في أخريات أيام حياته . ولقد نصح في آخر عظة له بالتخلي عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكاثوليكية واللامعمدانيين في صبر حتى يوم القيامة ، عند ما يتولى أمرهم المسيح » (٦١) .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثر ، وفاقوه في مطاردة الهرطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية في الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتل ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيئهم (٦٢) ، وقبل ميلانكيون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلماني الذي قمع حركة اللامعمدانيين في ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلاً : « لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم^(٦٣) . وأوصى باعتبار رفض
تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقي
للمسيح في القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام^(٦٤) .
وأصر على عقوبة الموت لكل طائفي يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ،
أو لكل من يشك في أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذي كفر عن
خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار^(٦٥) . وهلل ، كما سوف
نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور
الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام^(٦٦) . وطالب بالقضاء على كل الكتب ،
التي تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلي
وأتباعه وضعت رسمياً في قائمة الكتب الممنوعة في فيتنبرج^(٦٧) ، وبينما كان لوثر
ينفي الكاثوليكية من المناطق التي يحكمها الأمراء اللوثيريون ، آثر ميلانكتون
توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان في الرأي بأن السلطة المدنية مرتبطة
بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أي رفع شأن مذهب لوثر^(٦٨) ،
ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان في ولاية فإن
الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : ففي إمارة تغلب عليها الكاثوليكية يجب على
البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفي مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت
يجب على الكاثوليكية أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن
يعاقبوا بشدة^(٦٩) .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهي في هذا قد حذت حذو السوابق
الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواطنة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة في أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً
يحرم العبادة الكاثوليكية ويتخذ بنى كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ،
بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت (٧٠) فرانكفورت — الواقعة على الماين — قانوناً مماثلاً ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية في الولايات التي يسيطر عليها البروتستانت (٧١) ، وانهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلاً في مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار في ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمداني ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : « على كل من يعلم بحدوث شيء من هذا ، أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام في قهَذَا المكان لكي يُلقى القبض على الآثم ويعاقب في الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم » (٧٢) .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين في هذا بالكثالكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية في حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية (٧٣) من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : « على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة في البابوية قد أسىء استعماله بطريقة مخجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فلإننا يجب ألا نعاني منه حتى نكفر ، ولكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح » (٧٤) .

٣ — العلماء الإنسانيون والإصلاح الدينى

إن العقيدة المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشجيعهم الطائفي واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الدينى ، ولاهوتهم القائل بالخبر قضاء وقدرًا وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوى وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصي في حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت في تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الدينى ، فقد كان المذهب الإنسانى ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسية ، أما البروتستانتية ففسد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودى فى العهد القديم ، وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية فى شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل لأنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمنى بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الاتفاق الودى المريح ، أن أوروبا التيتونية كانت أقل مبالاة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذى يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردى . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التى ثارت بين لوثر وإليك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلي ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت فى غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميشولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التى رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوقة . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقى الإنسان من

تلك الكرامة التي كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبيل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض — كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم في أدب السلوك الإنساني يستحق الذكر — مجرد عمل آلى ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق في علم الله ، وتنفيذ أوامره التي لا نعرفها ؟

وليس من شك في أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط — ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورنر وسيباستيان برانت — قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هلّلوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملاً لظلم مخجل ، وذلك كلما تشكل اللاهوت والجدل الديني للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هلمني وسياسي ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة في المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفي عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : —

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً في مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التي تراكت تدريجياً في المسيحية . وعلى هذا فلن كنت أرجو أن وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، وإكنى كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال شأفة الأخطاء الآفة الذكر ، تسلفت أخطاء لا تغتفر أشد جسامه ، إذا قورنت بها الأولى ، فلأنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجلييين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخجل أو استلهم الشيطان » (٧٥) .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حيى لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح فى فيتنبرج » وسرعان ما شكك من أن لوثر « تعتريه لوثة مجنون » (٧٦) أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إليك من إحراق كتب لوثر فى أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبنى اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوبينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه فى عام ١٥٢٢ ، وبعث له برسالة أنبه فيها قائلا : -

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ نسأل الله النجاة ! إننا لتفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل » (٧٧) .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاعة أسلافهم الإيطاليين - فيليفلو وبوجيو وكثيرين غيرهما - تلك البذاعة جعلت لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراق لم يكن إلا سطحاً لاتهمهم . ولاحظوا - كما لاحظ لوثر - فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثرين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة النحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع في العلم والحصافة ، وأعرب أرازموس عن الرأى العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون^(٧٨) بهذا الرأى في حزن - وهو يذهب إلى أنه حيث تنحصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب)^(٧٩) ، ودفع البروتستانت هذه التهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولاً وقبل كل شئ ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات في المجادلات الدينية الذهن والمطابع في ألمانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير الهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروبن للنشر في بازيل والاطلانسى في فينا عدداً قليلا من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالباً ، حتى أشرفت على الإفلاس^(٨٠) وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر في ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيكنجن ، إلى سويسرة ، ولجأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق^(٨١) ، وبحث عن أرازموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والحصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمع علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين^(٨٢) . ورفض أرازموس أن يراه وزعم أن موقعه لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يمسك عن نشرها إذا دفع له أرازموس ، ولكن أرازموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام جانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين في بازيل في طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة لإقصاء الهجاء الخائن ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذى لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلي في زيورخ (يونية ١٥٣٣) ، وقال المصالح الدينى وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا . . . إلى هذا الخرب ، انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذى نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ، إن هذا الفم الذى تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة » (٨٣) . وفى غضون ذلك رد أرازاموس على « تحذير » فى رسالة كتبها على عجل وعنوانها *Spongia Erasmi adversus aspergimes Hutteni* ، (أى إسفنجة أرازاموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة فى زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التى تحدث بها عنه وأوصى بنفى الشاعر (٨٤) . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكته محارب الأفكار وأتلف الزهري صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة فى بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملابسه وقلمه .

٤ — أرازاموس — حاشية على آرائه

(١٥١٧ — ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازاموس بالنسبة إلى الإصلاح الدينى يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية — هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازاموس التى تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الدينى على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتصمون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة فى الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالا . وكان تفكيره فى

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، ولكنه في النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاينت شجاعته وحسمه للأمور القومية أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألماني ، فأثار أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب بلغة لاتينية رشيقة رقيقة لجمهور دولي ، إلى صفوة عالمية من خريجي الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويجد فيها متعة . كان إماماً في الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغالاة وهرب من ميدان العمل إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوي على الحذر ، وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ليسا جميعاً في جانب واحد ، ورأى الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق في وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل في مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى كوله ومور ، وكتب إلى كوله يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت عن وجهها برقع الحياء . أى شيء يفوق في القحة صهكوك الغفران هذه ؟ » (٨٥) وكتب في أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه في الرأي كل الناس الصالحين ، وإن قيل إن كتاباته ليست كلها في مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه في رأيه حول المطهر ، الذي يعتمدون عليه في كسب عيشهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم وأنا أدرك أن الحكومة الملاكية للكهنة الأعظم الروماني (وهذا حال تلك الحكومة البابوية الآن) هي وباء يحتاج العالم المسيحي ، على الرغم من أن وعاظاً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها في كل الظروف ، ومع ذلك فإنني لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرح المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الخبر الأعظم للحصول على قدر من الغنائم» (٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك فى لوفان ، وأسهم فى تأسيس Collegium Trilingue فى الجامعة ، بكراسى أستاذية فى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفى عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ، فاشتراط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسدياً وعقلاً ، ولكنه إذا كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدوره ما فى صياغة موقفه نحو الإصلاح الدينى .

وفى الوقت الذى تجاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ، فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يحمل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تخلله من لغو ، فإنه كان لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ، ذلك أن رجاحة العقل لا تتأتى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من الفئة القليلة المتفككة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الشناء على الطيش » ، التى كان يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوروبا ، تسخر من الرهبان والمشتغلين باللاهوت ، وتشدد من لدع خطابات لوثر المقنعة بالحقانية ، وعند ما اتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقس تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة» (٨٧) . ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإنسانيات الشهير ، أو ما ألح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب في ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس في تواضع واحترام ينشد صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً في حياته . وكان في مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجن ، وإذا اشترك مع لوثر في عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يخسر فحسب ثلاثة مراتب ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجده نفسه مضطراً إلى التخلي عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاقيات في الرجال ذوي النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً في هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وازهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوله وتوماس مور وفرانسيس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً إنهم كانوا على استعداد لأن يحجموا عن تفويض نظام كان في نظرهم مرتبطاً بطريقة مبهمة مع حكومة الأمراء في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي ، ولكن يمكن تجنيدهم في حملة لتخفيف الخزعبلات والأهوان في عقيدة راجحة الكفة ، وفي تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفي السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفي حماية حرية الفكر من أجل تقدم العمل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحي انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو في نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدا لأرازموس ، الطريق إلى

الخنون . وكان راوده الأمل في استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار في فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتبسة (٨٨) ، وكتب في أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، بحثه على حماية لوثر باعتباره رجلاً ارتكبت الناس في حقّه من الإثم أكثر مما ارتكبت هو من آثام (٨٩) . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لي في المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتبصر روح مسيحية قد أسعدتني أكثر من كل شيء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذي تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأي وسيلة ، ألا يراودهم الشك في أنني عاونتك في كتابة مؤلفاتك وأنى ، كما يصفونني ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أنى لا أعرفك بتاتاً ، وأنى لم أقرأ كتبك ، وأنى لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأى أيضاً أن الموضوعات التي كتبت عنها ليست من النوع الذي يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذليل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتميزون غضباً . . . وأنا نفسى الهدف الرئيسى للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم في صفى بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء في إنجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لي فإنى اشغل نفسى بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأنحاشى الخلافات الأخرى ، ولكنى بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين يسيئون استخدام سلطة البابا بدلا من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جندورها في لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية .
تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم
للغضب . لا تذكره أحداً . لا تفرح بالضجة التي أثارها . لقد اطلعت على
كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح
روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم (٩٠) .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط في المواجهة بين الضدين ، فإن المشتغلين
باللاهوت في لوفان استمروا في مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان
اللوثري . ووصل الياندر في الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة
البابوية التي تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد
محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النصارى زعامة الياندر وأقصوا أرازموس
من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ،
كما رأينا . دافع عن لوثر في مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا
(٥ نوفمبر) ، وفي الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف
باسم *Axiomata Erasmi* جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة
لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل
هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون
إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أى الحقيقة التي تعتمد على الإنجيل فحسب)
وأنه لا يمكن قمع (٩١) مثل هذا المزاج الذي انتشر انتشاراً واسعاً . ودبج بمعاونة
جوهان فابر اللومينيكاني عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم
شارل وهنرى الثامن ولويس الثامن ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل
في قضية لوثر . وحث في رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦
ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان
الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا
يصخبون في وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما في جيوبهم . . . ولم يرد عليه
أحد بعد أو يعدد أخطائه . . . فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد

فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ... وأخلاقهم كريمة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلا مثل هذا ، لا نشوب أخلاقه شائبة ، وليس في حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة في كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء عليه وعلى كتبه ، ليضيع في غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فإن كل امرئ يجب أن يكون حراً في أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفي المدافعون عن وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أو بوضعهم فوق الخوازيق فإن الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شيء يعث على النفور ويبعد عن الحكمة أكثر من نشره البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب إلى أسوأ . ومهما يكن من شيء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمانيون البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ، وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها في حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكني أنا وأمثالي لا يطلب منا اتخاذ إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هي عليه ، وأفضل أن أرى الأشياء على ما هي عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدي إلى نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ، وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين للكرسي البابوية الروماني ، وإن كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلي ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة في أيدي رجال لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ، ولم يتأثر بأراء الآخرين» (١٣) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا في يوليو عام ١٥٢٠ قراءة إلى أن يغسلوا أيديهم في دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً للمنشور البابا الذى يقضى بحرقه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفى الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفى الوقت نفسه أرسل ليو تعليماته إلى الياندر بمعاملة علماء الإنسيانيات بكل لطف . وعند ما اقترب موعد انعقاد المجلس النيابى فى ورمس ، طلب أمير ألماني من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدى إلى الإسراع بحركة الإصلاح الدينى ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفى فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجروء أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد حذرته منذ ست شهور خلت أن يجترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلونى » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة (٩٣) .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل فى مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شيء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف » (٩٤) . وفى الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت فى لوفان فى مهاجمة أرازاموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل فى أن يتناسى الإصلاح الدينى الفتى فى غمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات فى سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس رينانوس الذى نشر تاسيتوس وبليني الأصغر ، واكتشف فيليوس بايتر كولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى أعده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء مثل هانز آمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروين (يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوصه و (قال عنه أرازموس) «ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة» (٩٥) وهناك عاش ديرر أعواماً طوالاً ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية التى تخلب الألباب لفروين وبونيفاسيوس آمرباخ — الذى جمع المقتنيات الفنية الموجودة الآن فى متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفى زيارة سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط فى شيء من المبالغة التى تنطوى على الحب .

«يبدو لى أنى أعيش فى هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ، ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق زملاءه فى دراسة التاريخ ، وذاك متضلع فى اللاهوت ، وأحدهم بارع فى الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع فى القانون . وليس من شك فى أن الحظ لم يسعدنى ، حتى ذلك الوقت ، فى أن أعيش فى مثل هذا المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأى بشر وأى توافق» (٩٦)

وعاش أرازموس مع فروبن وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له فى بازيل (١٥٢٣ — ١٥٢٤) ولا تزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير أساقفة وارهام ، وهى الآن من مقتنيات إيرل أف رادنور ، والثالثة فى متحف اللوفر ، وهى من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بمعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطي نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإسانيات تشي كهولته التي جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ في السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالى الذى دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجلد والخصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته فى أن يكون عادلا مع الطرفين فى الخلافات المذهبية التى حدثت فى عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالختان ، وتقاطيع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا فى لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقها الإصلاح الدينى لأرباباً .

وفى أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بالفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطتى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهديك فى عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى فى روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدنى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لتبادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فلإنك لن تندم أبداً » (١٧) .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطلب منى النصيحة ، وترغب فى أن ترانى . وكفى كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحفى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن اكلماتى سلطاناً ، وإكفى للأسف أرى

أن شعبي ، التي اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافعاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، وفريق يقول أنى أتفق فى رأى مع لوثر ، لأنى لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنى على خطأ لأنى أعارضه . . . وفى روما وفى برابانت يصفونى بأنى هرطيق ، وزعيم شعبة من الهرطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنى لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليبينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك فى وسعى أن أجده مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التى يستنكرها عند لوثر . وخير من يحضلك النصيح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان — يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض — ينفثون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تودى إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذى تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التى تعالج بها . . . وأنا من جهتي أرى اكتشاف جذور المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنع عفواً عاماً . وإذا كان الله يغفر لى خطاياى ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفى وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التى يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هى الجذور التى أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحى اللاتينى ، ودعهم يتبادلون الرأى مع أعقل من يجدون من الرجال فى مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك (٩٨) .

يا لأدريان المسيكين الذى تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع في حث أرازموس على الانخراط في سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الديني ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) - (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شيء وقدرته على كل شيء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التي تقول بختمية القدر ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسي بين الإصلاح الديني والنهضة . وبدلاً واضحاً لأرازموس أن الإله الذي يعاقب على الخطايا ، التي ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم في الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العادة أو الثناء ، وثبة مثل هذا السلوك إلى « الأب الذي في السماء » كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب في نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أي مؤمن بختمية القدر أن يقدم أي مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التي لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصر على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا في التوفيق بين حرية الإنسان في التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده في كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن في الوقت نفسه دعونا نجنب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أي طاغية عرف في التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع ما تى فلورين (٥٠,٠٠٠ ؟ دولار) إلى أرازموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكنائسكة بنجبة الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التي تنشئ المصالحة ، والتي تنطوى عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوها خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانكتون الذى أعرب عن وجهة نظره فى الجبرية بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذى أبداه أرازموس ، وحذف نظريته فى هذا الموضوع ، وذلك فى الطبعات التى ظهرت فيها بعد^(٩٩) . وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل فى السلام — ولكن لوثر دافع عن الجبرية بلا هوادة فى رد متأخر عنوانه **De Servo arbitrio** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطأها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطأها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهى لا تستطيع أن تختار راسيها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . : والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شئ » ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتفتت فى التراب^(١٠٠) . »

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد فى القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لا لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمى وعلمية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كثالوث آخر ، الرغبات التى يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون فى القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شئ ، تجعله تعالى السبب الحقيقى لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالي فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذى يحكم علينا بالخلاص أو العذاب الأبدى : ويواجه لوثر مرارة منطقته برجولة فيقول : « لقد أسىء إلى حسن الإدراك والعقل الفطرى ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدي يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتني فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء . . . وإذا كان من الصعب الإيمان بربه الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان» (١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : « الإرادة المستعبدة » فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشته الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتي ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وإنجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرهما فى كراستين دينيتين بعنوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ - ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب رأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازاموس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللفظ فى المعاملة . . . ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تجديده ومفتوحة

لمختلف التفسيرات (١٠٢) . وأشار على الدوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعبدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام » (١٠٣) . وحدث هذا فى عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهرطقة ، الذى دعا إليه توماس مور (١٠٤) ، متأثراً بالصدقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحسباً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة » (١٠٥) . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضلين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهرطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيقين للشهادات (١٠٦) . وكان يؤيد كل شئ لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلّى عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطورة إلى نصفين ، وقال : « لى أنحمل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل » (١٠٧) .

وارتاع عند ما سمع بنبأ نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عند ما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحداً فقط قد ندّد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن لئلا نكون رائدنا الاعتدال في جميع الأمور » (١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبي للكنايس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج — الواقعة على نهر برايسجاو ، في أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسميليان الأول الذي لم يتم ، ليقيم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذي خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموا باعتباره من معتنقي مذهب الشك في الخفاء ، والسبب الحقيقي لما حدث في ألمانيا من فتنه .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرجحين بعودته ، وخصص له جيروم فروبن ابن جوهان غرافاً في منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعاني من القروح والإسهال وداء النقرس والحصوة ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ الديدن المتورمتين في رسم ديرر . وحبس نفسه ، في سنواته الأخيرة ، في حجراته ، وكثيراً ما كان يلزم القراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الجميلة المألوفة ، التي كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكاثالكة . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو مالين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب في السادس من يونيو عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشكاً ، ولكنه لم يفلح في التخلص من قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيو) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التي فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبهلاً اسمى مريم والمسيح . وشيعته بازيل في جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن في مقبرة بالكاتدرائية . واشترك علماء الإسانيات وأسقف المدينة في إقامة لوح حجري فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح في مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من « سعة علم لا تضارع في كل فرع من فروع المعرفة » . ولم يترك في وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صدقات للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه في الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذبذب جبان ، وذلك في حماسة الثورة الدينية ، واهمه أنصار الإصلاح الديني بأنه قادهم إلى حافة الهاوية ، وأغرامهم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووصف في مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفي أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه « طفيلي متسول لديه من الشوائب ما يكفي لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكي يعترف بها » (١٠٩) . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، عندما انتشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ روتستانتى صائب الرأي على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الديني ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خسنة . ومع ذلك بحق لنا أن نتساءل أما كانت ، بعد كل شيء ، الطريقة البطيئة هي في النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أى عامل من عوامل تقدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلاً للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الديني في القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر في الأفق أى إصلاح ديني جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس » (١١٠) . ويضيف مؤرخ كاثوليكي تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمى فكرياً إلى عصر لاحق علمي وعقلاني أكثر من عصره . والعمل الذي قد بدأ به والذي أوقفته الاضطرابات التي حدثت في عهد الإصلاح الديني استأنفه علماء القرن السابع عشر في وقت لقي فيه قبولا أكثر » (١١١) ، وكان لابد أن يكون لوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبثوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، في صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطيء لتنوير أذهان الناس .

الفصل العشرون

العقائد في حرب

(١٥٢٥ - ١٥٦٠)

١ - التقدم البروتستانتي ١٥٢٥ - ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليدة من أن تعيش في مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية ؟ إن الورع الصوفي والدراسات الإنجيلية والإصلاح الديني والتطور الفكري "وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هي التي كانت حاسمة : الرغبة في الحفاظ على الثورة في ألمانيا ، والرغبة في تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالي ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والمالية للأمرء والمدن والحكومات . أضيف إلى هذا بعض الظروف السياسية التي سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت في مد رقعتها بدرجة خطيرة في بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط في وجه تجارة العالم المسيحي ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند في حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا - أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء - لمقاومة هذا التهديد الإسلامي ، الذي يوشك أن يكتسح أمامه كل شيء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهنكاً في صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية في ألمانيا . واتفق في الرأي مع أرازموس ، الذي كان يحصل منه على معاش ، في أن الكنيسة في حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان في فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسلاح لحيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربة الثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « المهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين في نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون في أسى « إنهم لا يزالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشرف الأساقفة » (١) . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة (٢) ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة في دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففي ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ في فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكي ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس في المدينة تناول العشاء الرباني بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالي ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كاييتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذي خلفه هناك في أو لم على امتناق الدين الجديد أيضا . وفي نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شبينجلر وهيروني موس باوجيرتر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التي تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظنا بفهما الكاثوليكي . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً في برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بفقرات منها ، وفي نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين ألا يرددوا في عظاتهم إلا ما وجد في نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكل الشكاكين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترازوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية في سوابيا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام في أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترازوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالربح ، في عقول الناس .

وليس من شك في أن الأمراء الذين تبنوا باغتيال القانون الروماني ، الذي يجعل الحاكم الزمناً قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة » ، قد رأوا في البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تمثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح في وسعهم وقتلها أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذي خلف فردريك الحكيم كأير مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعله فردريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فردريك أبقى البروتستانتية موطدة في ساكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط في سلك اللوثرية أمراء آخرون : أربست اللونيبرجى ، وأوتو وفراسس أمير برونزفيك لونيبيرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان النيوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلّى عن عهوده الرهبانية ، ونزوح وخصص الأراضي التي تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقاً على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا :

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقى منهم ، فإن الأمراء اللوثرين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة في أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتقاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض في تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدينية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالهوى على مباني الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتنريخ عن الفقراء . أما الباقي فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانزكتون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب » (٣) . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر ، لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكملها — إيسن فريزلاند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين — البروتستانتية بالإجماع تقريباً . ولا شيء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خير من هذا . وحيثما بقى القساوسة استمروا في تأييدهم لاتخاذ حظايا (٤) . ورفعوا عقائدهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر (٥) . وأبلغ الأرشدوق فرديناند البابا بأن الرغبة في الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكاثوليك من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسوس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية^(٦) . وشكا كاثوليكي مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا في إقامة الولايم الفخمة^(٧) ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكي ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقي الفاخرة الأثاث التي استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »^(٨) . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسس العداء ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا »^(٩) ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس في كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »^(١٠) . ومهما يكن من أمر، فقد كان هذا صحيحاً في شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجي على أن يظلا كاثوليكين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا في معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرححة الملونة التي تنحون نحو التساهل في المسائل الجنسية ، والتي تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فاسفة الرواقية التي تقول بالجبر ، وتسود في الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء في ماينز وترير وفي كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية في بلادهم ، وأنقذ البابا أديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة في ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند في النمسا .

ودخلت هتغاريا إلى المسرح بصورة جوهرية . وكان ارتقاء لويس الثاني للعرش قبل الأوان ، وهو في العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً في سن مبكرة ، من العوامل التي أسهمت في تكوين المأساة الهتغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء في ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافنة للحيوانات التي كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة . وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيماً رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارد الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات . وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجددوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده (١١) . فما كان من السلطان الخائف إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف في بطولة مهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركي في ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر المائكي ، وأشعل النيران في الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر في النصف الشرقي من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحي إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، ورات جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له/سليمان أن يحكم في بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقي من هنغاريا فقد ظل في الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء في بوهميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأمل ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلاً من

بودا على طول نهر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن في خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها في أيدي الإسلام ، وليس من شك في أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسي كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان في اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكاثوليكية والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد في صراع من أجل روح ألمانيا .

٢ - مجالس الدايت لا توافق

(١٥٢٦ - ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجى ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، في انقسام طائفي ، يبدو أنه كان كامناً في مبادئ الحكم الفردى وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الرؤوس تقريباً » (١٢) . وشغل ميلانكتون نفسه في حزن بالتخفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيّات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتياب إلى الأحزاب البروتستانتية ، التي تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقى ، وشككية بغیضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء (١٣) ، وفي عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً في القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التي مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع في سبببر (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابى من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأى في المطالب التي تقدم بها الكاثوليك ، وموئداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر في الاقتراح المضاد الذى

نقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى في النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابي في الختام — وهو معلق على مجلس مثل هذا — بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التي يعتقد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك في موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها في شئون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبيير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير في إقليمه ، وحرّم إقامة القداس في المناطق التي تدين بمذهب لوثر . ورفض الكاثوليكية التسليم بهذه الدعوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشئون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أى مجهود فعال للمقاومة .

وبعد أن حتمق شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التي فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابي في سبيير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذي تولى رئاسته ، والإمبراطور الذي تغيب عن الحضور بالغاء « المرسوم » الذي وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضى بالتسامح في أداء الصلوات الكاثوليكية ، في الولايات التي تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الرعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشرائع حسب مذهبه في الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجالية واللامعمدانية في كل مكان خارجة على القانون . وفي يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً Protest » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتسوا من الإمبراطور عتله مجلس عام . وفي الوقت (١٢ - ج ٣ - مجلد ٦)

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتسليم بمرسوم سبيير الأصلي بأى ثمن . وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيه عام ١٥٣٠) برئاسة . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان وقتذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة أدخل المصطفى السروى على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر فيها الإمبراطور بمد يوفته^(١٤) ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ، فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقترب بها من البابوية . ولم يضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ، ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، واكنه ذهب إلى كوبورج الواقعة على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانى عن طريق الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنتها ، وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكوا من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا »^(١٥) . وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيه التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان باير الإمبراطور وبلجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان ميلانكتون قد أعدده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكي) « لهجة مشرفة معتدلة مسالمة » (١٦) . وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثرين ، وأفاض في المهرطقات التي أدانها الإنجيليون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأنجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء ، وفرق بين الإصلاح اللوثرى والإصلاح الزونجلى ، وترك الأخير يتحايل لنفسه . وخفف من العقائد التي تقول بالخبرو « التجسيد » والتزكية بالإيمان ، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين ، التي كانت البروتستانتية قد قللت منها ، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس في كل من الشككين ، وعن التحلل من عهود الرهبانية ، وعن زواج رجال الدين ، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن ، كما دبحه به . وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل ، ولكنه أعرب عن رضاه ، الذي لم يكن منه مفر ، عن هذه الوثيقة ، وأرسل زونجلى تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح يجسده في القربان المقدس ، وقدمت ستراسبورج وكونستاتس ولينداو ومنجن إقراراً منفصلاً هو : Tetra Politana ، وفيه جاهد كاييتو وبوسر. لسد الثغرات ، التي بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية .

ورد الحزب المتطرف من الكاثوليك الذي يتزعمه إليك ردّاً مدعماً بالبراهين ، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم ، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور ، حتى خففت لهجته مرتين . وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقدسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية ، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين ، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب .

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون ،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والزبد . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعي والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا في الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدي إلى إخضاع القسوس الجدد للدرجات الكهنوتية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الديني في أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أذراجهم إلى أوطانهم .

وفي التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابي ، الذي كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائي أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية : ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطوري أن يبدأ في اتخاذ الإجراءات التامونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهي في ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطوري ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكي يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابي ، ذروة التعقل ، وفي خلال تلك الفترة عرض عليهم الإغناء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يقدم . إذا سمحت واجبات أخرى ، التواعد المتناظرة في عالم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليا .

وبينما كان المجلس النيابي في ذروة انعماده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التقليدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشمالى ، الذى اتخذ اسمه من موطنه الأصلي بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفر ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ، ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لمجوع آخر على فينا ، كما أن بارباروسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا - وهو حليف سليمان أيضاً - كان يتأهب للانتفاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلاً من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ، فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نورمبرج (٢٣ يولييه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ، ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية . فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بخمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت ، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم » (١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعند ما عرض إيماندر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثرين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتناع لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الحصى العون الفرنسى ، لكن يستعيد الدوق أولريخ البروتستانى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها (١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولاً في الشرق ، وشارل منهمكاً في الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمرانيين يدعمون ثورة شيوعية في منستر . واستولى المتطرفون في يورجن فولنغفر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك في ذلك الوقت في حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه في حربهم ضد العثمانيين ، وفضلاً عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما في هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشد التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالي الذي بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعند ما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط ، التي يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجب بأنّه لن يعترف إلا بمجلس يعقد مستقلاً عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزمانيين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشتبكوا فيه على قدم المساواة (١٩) ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطوري ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك في الاحتفاظ بأمالك الكنيسة : أو بحقوقهم في التثليم بالعبادة وفق شعائهم في أراضي الأمراء البروتستانت (٢٠) . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حائنها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطوري ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خفيفة من أن يطعنه فرانسيس الأول في ظهره بجعاه في حرج .

واستمر المد البروتستانتي يتعاظم ، ويقول مؤرخ كاثوليكي : « في اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب ألياندر إلى البابا من مدينة لينز يقول إن الحالة الدينية في ألمانيا متهازة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومتأولة القربان . وكان الأمراء الزمانيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يعمقون نظام القساوسة مقبلاً بالغاً ، ويطمعون في أمالك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعيشون في بلخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل . إلى حد أن بعض الكنائس أعرضوا عنهم » (٢١) .

وعند ما توفي الدوق الكاثوليكي جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بدوره هنرى وكان المنقذ العسكري للبروتستانتية في ألمانيا . وفي عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثانى الأمير المختار فى براندنبورج كنيسة بروتستانتية فى عاصمته برلين معتزلاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفى عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفس وأسقفية نارمبورج بل وكبرى أسقفية ألبريخت فى هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل فى حينه . وفى عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد : كبير أساقفة كولون وأميرها المختار ، روما بتحويله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا فى يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلى الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . ولن يتم ذلك إلا باعترافهم العقيمة الطاهرة ، التى وردت فى إقرار أوجسبورج ، واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتنقه من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معاملته باعتباره ظالماً متعسفاً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه فى ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان » (٢٢) .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا فى أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا إلى الاجتماع فى « ندوة مسيحية » ، ليجثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم . وكتب قاصده رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حاسمة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسترط فى براثن البروتستانت » . وفى مؤتمر تمهيدى بومرس دار

جدال طويل بين إيك وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل الإنجليك ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التي تدل على رحابة الصدر ، والتي صيغت في إقرار أوجسبورج (٢٣) ، وتشجع شارل فاستدعي جماعتين إلى راتيسبون (رهنزبورج) ، وهناك عقدا اجتماعاً تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) . وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبيه الكاردينال جاسبارو كونتاريني رجلاً حسن النية وعلى خفاق رفيع . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه ، ولذا كان توافقاً جديداً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا في أن له ميولاً بروتستانتية . وتلاقت آراء المشركين في المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبيين المعروفين ، ولكن ما كان لأى شعوزة أن تجل في الحال صيغة تؤكّد وتنفى في الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد في القربان المقدس ، ولم يجد كونتاريني تفكّكه في سؤال وجهه إليه بروتستانتى عما إذا كان الفأر الذى يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب (٢٤) ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أى إجراء ضدهم لتسكينهم بالعقائد المنصوص عليها في إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأدراك الكنيسة المصادرة » .

وفي خلال هذه السنوات التي اشتد فيها الجدل وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلاً قد ناضل في سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التي عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفي عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً لجميع الكنائس الواقعة في دائرة دوقيته بأداء الصلاة وفق المذهب الإنجيلي ، كما صاغه ميلانكتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الإمتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقته ، ويُنفي العامانيون المتشبهون بأرأسهم بعد فترة يمهلون فيها (٢٥) . وحذا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلاً . وكتب لوثر في خمس صفحات *Kleiner Katechismus* ، ويتألف من انوصايا العشر ، التي وردت في عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة لكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان القساوسة الجدد بوجه عام رجالاً يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين في الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع في علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم في أبرشياتهم . وروعت إقامة الصلوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد في الكتاب المقدس ، واحتفظت « عبادة الرب » بكثير من شعائر الكاثوليك — المذبح والصابب والشموع والنياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، ولكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتأعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صاوات تقام للعدراء والقديسين ، ونبتت الصور والتماثيل الدينية ، وتحوت عمارة الكنيسة ، بحيث نتيح للعابدين سماع الواعظ بسهولة ، وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً في الكنائس البروتستانتية . ومن أجل ما استحدثت المشاركة الفعلية لجماعة المصلين في عزف الموسيقى ، التي تصحب أداء الشعيرة . فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك في الترانيل ، وفي وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه في شغف ، دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد في هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين عشية وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، ينخلها الحواري ، وتثير الإلهام . وتاسم

بالقوة والجزالة ، وتنفض بالرجولة ، التي تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بترتيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها في غضون الأسبوع ، ورتابها عائلات كثيرة في البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجهما من دينها) أكثر مما فعلت عظاته » (٢٦) ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكي في عصر النهضة .

٣ - أسد فيننبرج ١٥٣٦ - ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة في المؤتمرات السلمية في سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ، لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العتيدة والشجيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم في السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوى عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلى هو هل سمعت الخبر ، الذي يتردد في إيطاليا ، وهو أني سيكير ألماني) (٢٧) ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض - سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات في الكليتين ودمايل في الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النساء وخفقان في القلب . واعتاد أن يجرع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، ونخيل إليه في عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرني أكثر من هذا فلنئ سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك » (٢٨) . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشيء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصله قاروه عنه . يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريديه في حزن : « كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقصاصة منه علناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألماً ، لكثرة ما يلقي من إذلال على يد صمنه ، الذي صمعه دون أن يصقله ، ومما يؤثر عن لور أنه قال أما أوكيو لامباديوس وكانين . . . والمراطمة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان استواهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم السنة لا نطق إلا كذباً » (٣٩) .

واكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال في رسالته « عن المجالس والكنائس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجلس عام أكثر من مرة بإثارة حفنطة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحات ، وذلك بصورة تنم على علم غزير . وسجل أن عدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة — وفي هاها تلميح لشارل ، وأعرب عن شكره في أن يتروم أن مجلس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح الحكمة الرومانية ، وقبل لإقرار حضور البروتستانت في مجلس للكنيسة « يجب أولاً أن ندين أسقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه » (٣٠) .

وتوحي أراؤه السياسية في السنوات الأخيرة من عمره بأن السيكت من ذهب حترأ بعد سن السنين . وقد كان طوال حياته من المحافظين في السياسة ، حتى عند ما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية : فتمد اعترض على الثمن الفادح الذي يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعده على استبداد البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد في مسيحية المحافظين — الثالث وولادة العذراء والتكبير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده في القربان المقدس

والبحيم - وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة في نفوس الناس أكثر من ذي قبل . وكان يزدري العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير في عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد «الجمهور» في حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الممخية من عقائدها ، ويتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتمد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة» (٣١) ، ولكن عند ما تفقد حكومة المسيحات سلطانها ، فن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لازماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سيطرة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهي للملوك ، وفي هذا يقول : «إن اليد التي تدير السيف الدنيوي ليست يداً بشرية وإنما هي يد الرب . والرب (٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذي يشق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرعوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذي يشهر الحرب » . وفي هذا التجديد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بدور فلسفات هوبز وهيجل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنري الرابع في لوثر ما يؤيد إحضار هيدبراند إلى مدينة كانوسا .

وعند ما تقدم لوثر في السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم . وأقر الإكراه البدني على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعند ما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة . إذا لم تفرض على العامة . فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم . إلى حد لا يطاق (٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق «الأغنام والماشية والعبيد والجراري كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخير لو ظل هذا معمولاً به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبقة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه» (٣٤) . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه في جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضعية وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة للمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب الهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلاً حى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (السافوية) ، امرأة تفتقر إلى الوسامة ، ولكنها مخلصه ولود . وتردد فيليب فى أن يطلق زوجة كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقيها ، وهر فى طور النقاها من مرض الزهري (٣٥) ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جرد مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد . الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلاً عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لباقة مما أقدم عليه فرانسيس الأول ، من أن يرث العشيرات ، وأكثر شفقة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعان أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فيتنبرج أن يتبنوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استعداد . والحق أنه كان قد فضل فى رسالته « الأسر الباباوى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن (٣٦) . وكان الكثيرون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر (٣٧) ، أما ميلانتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعربا عن موافقتهما ، و لكن يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذي قبل « (٣٨) . وفي يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سرّاً ، من مارجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللانديجراف المعترف بالحميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربية من النبيذ على سبيل الهدية (٣٩) ، وعند ما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سرّاً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح » (٤٠) .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعاني من ونز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران (٤١) وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإني ساكسوني صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدي غاظة إلى درجة تجعلني أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور » (٤٢) . ومهما يكن من أمر فإن معظم الإنجليييين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر في السماح لهنرى الثامن بالزواج مرة أخرى (٤٣) . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة الجديدة ، فإنه أصبح الآن يثقها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فياييب تعهداً بتأييده في جميع الانقسامات السياسية في المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر ناري الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم في عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلي بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

فى الجنوب والبروتستانت فى الشمال . وعند ما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشتراك فى مجلس يديره البابا مباشرة ، دبح لوثر خطاباً مقدعاً بعنوان : « ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التى تجاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كرانش ، الذى زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوى على هجاء مقدع ، فأحدها يصور البابا ممطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه دلو « لجامع قمامة » وألهمت كلمة « شيطان » نص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمى » و « هذا الخنثى الرومانى » و « البابا السدومى » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحميم الجبهة . . . لكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبليدهم ، وأن يحرقوا فى نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاسقريوط والجذام والجمرة وسائر الأمراض » (٤٤) . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكى تبتلع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدى العاطلة . خذوا من بابا روما ، أولاً وقبل كل شئ ، رومانيا وأوريننو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، فى غير ما خجل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تحصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادلته وكل طغتمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أفقيتهم ، وشد وثاقهم في صفوف على المشائق (٤٥) .

ولعل الضعف قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجي للأعضاء الداخلية ، يمرور الرقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر في سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، بخدين مهملين وذقن ملتو . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيبني الزهن » (٤٦) ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ . يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكثرث لشيء ، ليس له عين سليمة » (٤٧) . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هي منى » (٤٨) وعند ما تمت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى ، إني لأتنازل عن فرصتى فى دخول اللجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى » (٤٩) . وقال « إني لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصنفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنى ويدوى الرد وأرقد فى سلام » (٥٠) . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . وتراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على الاعتراض بأن لدانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلاً من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركبى فى حيرة شديدة » (٥١) . وكان فى بعض الأحيان يتملكه اليأس من مستقبل البروتستانتيّة : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب (٥٢) تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و « بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها » (٥٣) على العقيدة الجديدة . ولكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان . ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نفسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى يهصر هصرأ ، فلمنى لا أبلى بهذا الأمر ،
ولسوف يكابد المسيح ما كابدت « (٥٤) » .

وبدأ وصيته بحروف كبيرة ، بقوله : « لى معروف تماماً فى السماء
وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن « آتماً تعساً يستحق اللعنة ،
لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ،
أستاذاً للحق ، يزدري الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك
والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة :
« ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ،
وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتى لوثر موثق الرب وشاهد
لإنجيله » (٥٥) ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مستط رأسه
أيسليين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغيبه هناك برسائل شائعة إلى
زوجته - منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح
السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كانتى
لقد كنت عليلاً وأنا فى الطريق إلى أيسليين ، ولكن هذا إنما يرجع إلى
خطئى . فقد هبت ريح صرصر عاتية من خلنى ، واخترقت قلنسوتى فوق
رأسى ، فشعرت بأن غنى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حريباً
بأن يعيننى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، ولله الحمد ، بصحة
جيدة ، إلى الحاح الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الحملات من النساء ،
فإبالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله (٥٦) .

وتناول عشائه يوم ١٧ فبراير فى مرج ، وفى الصباح المبكر من اليوم
التالى سقط مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن جسده بسرعة ،
وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمعوا إلى جانب فراشه ، أنه يحتضر وسأله
أحدهم « أيها الأب ابلال هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعتيدة

التي بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلا « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن في كنيسة القصر ، التي كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات في التاريخ . وكان لوثر صوته المدوى الذي يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخي ، الذي لعبته الكنيسة في نشر المدنية بأوروبا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجدها فيها العزاء والسوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل في معاملته مع خصومه من الكاثوليك والبروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا مصعوم من الخطأ ، ولكن في الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً في ديانة القرون الوسطى . وهي عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما في تلك الديانة من جمال تقريباً في أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهي أقل منها بهجة وساواناً ، وإن كانت أكثر صداقاً وأشد إخلاصاً في القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح في تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ في تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بفطرته محباً للحرب . لأن الوقت . كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التي هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلة . وقضى طوال حياته في معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلي ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويجولوها إلى احتجاج مهذب ، يسمعه الناس في سماحة ، ثم يضيع في غمرات النسيان ، وماذا كان في وسع رجل أرحب منه صبراً أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك في أنه ايسر في وسع رجل متضلع في الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشيء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرأفة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة في عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر في قلوب الناس بهذه الاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق في وجه حركة الفكر الأوروبي . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ — وهذا أقل اختبار موضوعي في وسعنا أن نلجأ إليه — فإننا نستطيع أن نضع لوثر في مصاف كوبرنيكوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت في العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر في العصر الحديث باستثناء شاكسبير و نابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية *fideism* كانت وقومية فيخته ومذهب شوبنهاور في الإرادة واستسلام الروح الهيجلى للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألمانى واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملاً ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب في إنجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألمانى آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكاراشادات وآخرون في خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتنصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه في الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهباني ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا في اسكنديناوه ، وعابرا في فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن في سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما في ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق في العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية في تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جما ، لأنه كان أشدهم جميعا تعصبا لألمانيته .

٤ — انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ — ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التي لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية في ألمانيا .

وفي عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذي لقي العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبي . وعقد سليمان ، وكان في حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعد البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٥١٠٠,٠٠٠ دوكات و ١٢,٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهرطقة . . . وأحس شارل بأن في وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم في رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق في ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت في الاستهانة بسلطانهم وعجز أن يملئ عليهم الشروط التي يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلا أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتخالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقدعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان^(٥٧) — كان في وسعه أن يتحمل هذا في صمت كئيب — أما الآن فإنه حر في أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضى ، وأن يصوغ مملكته ، التي مزقتها الفوضى ، في دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد في مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعند ما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلاً بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفي أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكري في ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالى له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده في هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولانديجراف فيليب الهسى ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصني أراضيهما وأموالهما . ولكى يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل في شئون البروتستانتية في أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلاً لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعده صدر له بأن يحل محل جون كأمر مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، في كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتي فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسى وأمراء أنهارت وحكام مدن أوجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أمواهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا في ميدان القتال ٥٧,١٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل . سار فرديناند شمالاً وغرباً للاستيلاء على دوقية جون . وانضم إليه موريس في غزو ساكسونيا الأرستقراطية ، لكي يساعد بشيء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته . وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن في غضون ذلك بدأ جنود فيليب في الفرار من فرقتهم . بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية لتشد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل في المعاملة . ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة . حطمت العمود القمري لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها . وكان شارل وقتذاك متفوقاً في السلاح . وفي الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التي وقفت في صف البروتستانت هي قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم . فلذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها في شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحلق بالولايات البابوية وتبتلعها . وينتهي بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيوش البابوية ، التي كانت تحارب مع شارل . بالتخلي عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر في اغتباط . ووجه البابا نفسه يطرب كأي هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون في ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة . فزحف نحو الشمال . والتقى بقوات الأمير المختار المهتكة في ميلبرج . على مدينة مايسين ، وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ أبريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل المكى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا ستمطت عاصمة البروتستانتية الألمانية في أيدي الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقه في هدوء تحت صفائح بارزة في كنيسة القصر .

وأقنع مورييس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسي بالتسليم ووعده بأن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظنن ، إذ كان هنرى الثامن قد مات في يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان في مجلس نيابى آخر في أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاوموا جهود شارل لدعم انتصاره العسكري ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضى عن مقتل بيرلويجي فارنيزى . الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ، وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء . وانزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملالك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة في أن يصدر أحكاماً ، في مثل هذه الأمور . وتهاشم الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بملدقة إمبراطويته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد مورييس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه في فيتنبرج يعد بروتستانتياً ومنتهصراً ، ومكرهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المغلوبين على أمرهم ، وكانت خيائته قد سمحت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضمّ سرّاً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبور (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطرده شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتز وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلاً بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كازنثيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوروبا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فرديناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجاس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محبة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالحيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرنخت ألسيبياديس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته في ألمانيا ، تحول نحو الغرب ليجدد صراعه مع فرنسا . ورأس فرديناند ، متدرباً بالصبر ، المجلس النيابي التاريخي في أوجسبورج (٥ فبراير — ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذي منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمي ، الذي ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذي لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التي فاز بها الملوك في فرنسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية في المجلس النيابي ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم في القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت في إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطس ، الذي خلف موريس في ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستانت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو في خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له في حمل اللقب الإمبراطوري . ونخشى الكاثوليكة مطمع هذا الإسباني القاسي في حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع في ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده في أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت في المؤتمر الانتخابي .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شيء : يجب أن يكونوا أحراراً في ممارسة عقيدتهم في كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك في الأرض التي تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء لإجراءات تصفية أملاك الكنيسة في الحاضر والمستقبل على السواء (٥٨) . وتوصل فرديناند وأوغسطس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص في هذه الكلمات الأربع المشهورة : *Cuius regio eius religio* ، وهي تجسم الضعف الروحي الذي انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفي داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد في دولته ، وكل من لا يجب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى بجانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ . الذى أيدته الإصلاح الدينى فى فتوة ثورته — الحق فى الحكم الخاص — رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السلطة العقيدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى رأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العقيدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ، وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلاً ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحتمد والشتاق للذين كانا يمزقان ألمانيا . وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله (٥٩) ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشقين بدلاً من أن يحرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصورة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحقيقى فى حرية العبادة ، و لكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ، مثل هنرى الثامن ملك إنجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يحمدون للناس العتيدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراسى — وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة — قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجنوا ثمار هذا النصر — سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ، و لكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ، بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى (١٥٢٤ - ٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة السيذنية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التي كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت في عام ١٨٠٦ . وإنما ماتت في عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية . مثل الإمبراطورية . في غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور . يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن — بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً . فقد صار الأمراء أحراراً في أن يتدخلوا في الشؤون البلدية ، وتضاعل استقلال المقاطعات . وفي غضون ذلك ابتلعت قوة هولندا النامية معظم التجارة . التي كانت تنسب المنتجات الألمانية في بحر الشمال . عن طريق مصبات نهر الراين . وضعف شأن المدن الجنوبية . بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك في أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانية ، في مدى مائتي عام بعد ذلك . أن تستعمر مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التي سبقت عهد الإصلاح الديني ودعمته . . .

وعاش ميلان، كنون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج ، ولم يكن وانقاعاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه ، لا في المفاوضات مع الكاثوليكية فحسب . وإنما في تحديده اللاهوت البروتستانتي . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بخصمية القدر كلية . وحضور المسيح بجسده في القربان المقدس (٦٠) ، وجاهد في الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات . وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدل مثير بين « اللوثيين » — ميلان، كنون وأتباعه — وبين اللوثرين المخافين الذين انفجروا أساساً من ينا . وأطلق هؤلاء على ميلان، كنون لقب « المماولك المارق » و« خدام الشيطان » ، ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان^(٦١) . وكان الأساتذة يعينون أوفصولون ،
ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق
الطرفان على أن يعلننا حق الدولة في قمع الهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون
حذو لوثر في إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهي للملوك^(٦٢) ، ولكنه تمنى
لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينها حماية أرسيمراطيات أوساط الناس ،
كما في زيورخ وشراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع
الأمراء . وفي أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمي الذي كان يتطلع إلى
أن يكونه : « فليتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنساني وعن رحمة
الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق
الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقي
فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »^(٦٣) . وعندما دنت منيته رحب
بالموت ، باعتباره تحريراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن
همجية « العصر السوفسطائي »^(٦٤) . والحق أن التاريخ قد أخطأ في اختياره
للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصدقة والسلام ، وأجبرها على
الدخول في حرب ثورية لم تخلق لها .

الفصل الحادى والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ - ١٥٦٤)

١ - شبابه

ولد فى نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسى . يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك فى البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين - حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال فى إدارة الكاتدرائية . ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد مات أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القائمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنة ، وهو على ثقة من أن فى وسعه أن يجد لهم مناصب . وجعل لاثنتين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق ، ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالى مع إدارة الكاتدرائية ، ولقى بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه فى الأرض المقدسة .

وأرسل جان إلى كلية دى مارش فى جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحقق كتابة اللاتينية ببراعة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دى مونيجو ، ولا بد أنه سمع هناك أصدااء تردد عن تلميذها المشهور أرازموس . وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذى التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجنتيوس لويولا . ويقول أحد الثقات من الكاثوليك « أن القصص التي رويت في وقت ما عن شباب كالفن الطائش ، لا تستند إلى أساس » (١) والأمر على تقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً خجولاً معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه » (٢) ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه . الآن وفيما بعد . حباً خالصاً لا يتزعزع . وفي غمار السعي الحديث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفنن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاه في طلب العلم ، بعض الأوصاف الكثيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الذين حصلوه الثراء العريض » (٣) . وعكف كالفن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون . وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكري حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويجولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مائلاً . وأصبح ، فوق أي شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكوريوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) . عاد إلى باريس وعكف في نهج على دراسة الأدب الكلاسيكي ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة ليرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً : فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن *De clementia* لسينيك . وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحمية للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازمو .

حياء فيها باعتباره « المعلم الثانى فى عالم الجدل » (بعد شيشرون) و « أول إشراقة للآداب » . ونخيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانية عند ما وصلته بعض عظام لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت الدوائر النشطة فى باريس تناقش الحركة الجديدة ، وليس من شك فى أنه دار حديث طويل حول الراهب المتهور ، الذى أحرق منشور البابا . وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ، والحق أنه قد سقط فى سبيل البروتستانتية شهيداً فى فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحنون على إصلاح الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ، وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً لدى شقيقة الملك مرجريت دى نافار . واختير صديق آخر . وهو نيكولاس كوب . ليشغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضاع فى إعداد الخطاب الافتتاحى المشؤم ، الذى ألقاه كوب « أول نوفمبر سنة ١٥٣٣ » . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمى لمسيحية مطهرة ، واستطرد ليشرح نظرية لوثر فى الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتأس الإصغاء فى تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغاً ، وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان فى اتخاذ إجراءات ضد كوب بتهمة الحرطقة . ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل . وكانت وقتذاك تعتق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأنخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل فى قائمة المطاوعين للقبض عليهم . ويبدو أن مرجريت قد تشفقت له ، فغادر باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له فى أنجويم ، ولعله بدأ هناك بمكتبة لوى دى تيبه الغنية بما تضم من كتب قيصة . فى كتابة مؤلفه Institutes . وفى مايو جازف بالعودة إلى ثيون . وتنازل عن رواتبه . التى كانت تدر عليه دخلاً يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطاق سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سرّاً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس . الذى قدر عليه أن بحرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهيئة فى أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسيس الأول منهم بأن أمعن فى اضطهادهم ، وفر كالفن فى الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كورب فى بازيل وهناك أتم ، وهو شاب فى السادسة والعشرين من عمره ، عملاً يعد من أبلغ الأعمال فى أدب الثورة الدينية ، وأشدّها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمثيلاً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدّها جميعاً إرهاباً .

٢ - عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحى » ، وفى خلال عام واحد نفذ الكتاب ، واستدعى الأمر لإصدار طبعة جديدة ، واستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً فى النثر الفرنسى . وحرّم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كليهما ، وأحرقت نسخ منه علناً فى العاصمة ، واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ فى شكله النهائى .

واستهلّت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحى لفرنسا » وهى مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسيس أولهما : الأمر المالكى الصادر فى يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التى وجهها فرانسيس فى الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين الماكية الفرنسية وبين الأمراء اللوثرين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل فى أن يوطد المأرب السياسى على دعامة

من الجدل اللاهوتي ، وأن يعاون في استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان تواقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة الالمعمدانين ، التي اقتربت وقتذاك من الشيوعية في منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادي أو سياسي . وتكشف بداية ونهاية هذه المقدمة روعة أفكار كالفن وجزالة أسلوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاي لم يكن هناك شيء أبعد من التفكير في تدبيح كتاب ، يقدم فيما بعد إلى جلالتهكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكنني عند ما أدركت أن غضب بعض الأشرار في مملكتكم قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة في البلاد ، رأيت من الواجب أن يستفاد مني ولو في العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافي عليك ، لكي تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التي يستهدفها هذا الغضب ، الذي لا يعرف حدوداً ، والذي يعمل في صدور هؤلاء المجانين ، الذين يزعمون البلاد بالسيوف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوي على ما يخص لتلك العقيدة ذاتها . والتي يستحق من يعتنقها : طبعاً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفي وإهدار الدم والتحريق وإبادة من على ظهر الأرض . وإلى لأعلم جيداً اللدسائس الأثيمة ، التي ملأوا بها أذنبيك . لكي تبدو قضيتنا بغيضة جداً في نظرك . ولكن حلمك كفيف بأن يهديك إلى التفكير في أنه إذا كان الاتهام يكفي دليلاً على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة في الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاي تستطيع أن تبين الوشايات الزائفة ، التي كانت تطرق أذنبيك عنها (قضيتنا) ، وهي تفتضح كل يوم : إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صولجان الملك من أيديهم . هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

(١٤ - ج ٣ - لحد ٦)

الحكومة ، وتعكير صفو السلام والأمن بين الناس ، وإلغاء جميع القوانين ، وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة اضطراب شامل .

ولهذا أتوسل إليك يا مولاي -- وهو بالتأكيد طلب معقول -- أن تأخذ على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية . التي أثبتت حتى الآن بصورة مبهلة . وبلا اكتراث . وبلا سند من القانون . وبدافع من العاطفة الموهجة أكثر من أي دعامة قانونية . ولا يذهب بك الظن إلى أني أفكر الآن في إعداد دفاعي عن نفسي . لكي أضمن لنفسي عودة آمنة إلى وطني الحبيب ، فأنا : على الرغم مما أكنه له من حب ينبئني على كل انسان أن يحس به نحوه . لن أندم أبداً . في الظروف الحالية . على انتقالي منه . واهي أدافع عن القضية أمام كل المتدينين . وبالتالي أمام المسيح نفسه . هل يتحسّل أن نفكر في تقويض دعائم الممالك . نحن الذين لم يسمعنّا أحد نفوه بكلمة واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة مستقيمة عنه ما كنا نعيش تحت حكمك . نحن الذين لم نكف . حتى في منفانا الآن . عن الصلاة لك بالنجاح وللملكتك بالرخاء . . ثم إننا لم ننتفع إلا قليلا بالإنجيل بنضل الله . وإنك حياتنا يمكن أن تكون مثالا يحتذى لمن ندعوا بعقمتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا . فلإننا لا نياس أبداً من استعادة عطفك . لو قرأت بهدوء واطمئنان إقرارنا هذا . الذي نعزم تقديمه إلى بجلالتكم . كدفاع لنا . . . ولكن إذا كانت أذنك مشغولتين على التقيض بسماع همسات الحاقدين . التي لا تدع فرصة للمتهمين للدفاع عن أنفسهم . وإذا استمرت تلك العقبات الموهجة في اضطهادنا بالسجن والتشكيل والتعذيب ومصادرة الأموال والحرق .

وتغاضيك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد .
ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن
نحتفظ في صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ
الفتراء من نعمهم ، والمعاقبة المستحقين بهم . الذين يتهيجون الآن في أمن
واطمئنان تام . ولما لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل
والتقوى ، وأن ينتشر في مملكته القسط والإنصاف » (٤) .

وليس من اليسير علينا ، في عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة .
باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم : أن نتذكر المزاج
الذى ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلاً هائماً في حب الله -
أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ،
الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة . وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل
المذكور الذى يحكم هذه النجوم الطيبة التى لا تحصى ؟ وأن الله . رافة
بعقل الإنسان . قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس ، وثبت أن هذا الكتاب
المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له
على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، واقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم
ممن هم فى مستواهم . وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ،
ويشرح صدرك . ويحرك شغاف قلبك . ويخلب لبك بطريقة مدهشة ،
ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس . سواء كنت راغباً
أو غير راغب . فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة . وينفذ إلى قلبك ،
ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك . إلى الحد الذى أو قارناه بما لتلك المصنفات
من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كله
أو يكاد . ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً إلخياً فى الكتب المقدسة . يفوق
بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف » (٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التى نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير ، لا فى الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن فى التاريخ والسياسة وكل شىء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعضناهما أمر الله ، الشر الذى فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عدل الله ، حتى إنه ليدرك ، ويرغب فى ، ويباشر كل شىء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والدنس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد خبيث ، وإذا قام الناس فى وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً فى الظاهر ، فإن العقل يظل دائماً متورطاً فى النفاق والخداع ، والقلب يظل عبداً لانحرافه الباطنى » (٦) .

وأنتى مخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدي فى الفردوس ؟ ليس فى استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حتماً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذى ضحى بنفسه فى سبيل البشرية هو الذى يستطيع وحده أن نخلق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضى عذاب معظم البشر فى نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظفر بالنجاة . وقد وهب تعالى لليثاء إيماناً راحداً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن القديس بولس قال : « لقد اختارنا الرب فى نفسه قبل خلق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أظهاراً . لا تشوبنا شائبة فى الحب ، وقادر علينا أن نتمخذ لنا أبناء . كما اتخذ المسيح عيسى ابناً له بمشيئته » (٧) . وفسر كالفن هذا ، كما فسر لوتر . فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نستطيع به من فضائل ، أو نتصف به من رذائل . وقبل خلقنا بوقت طويل . من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب فى نار جهنم (٨) . ويجب كالفن على السؤال الذى يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس . والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى لاني أتغمد برحمتي من أشاء وأعفو عن أشاء»^(٩) . ويختم كالفن حديثه بقوله :

« وطبقاً لهذا نؤكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والحلاك ، ونؤكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التي يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب في النار أغلق دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم»^(١٠) .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشري في رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة»^(١١) .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التي قرر الرب أن يخفيها عنا في نفسه ويفلت من العقاب»^(١٢) . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكيمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكي يزيد من إعجابنا بمجده » بعرض قوته^(١٣) . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائي في المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سافاً ، لأنه كان قد قضى به في حكمه»^(١٤) . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه » . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدي حكم مطلق ، وليس هناك مظهر في لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل في منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يمحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شيء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شيء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، ولسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا نلبذ القداس ، ونعتبره ادعاء من المساوسة ، ينتمكون به الحرمان بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحققة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعترفون معنا بنفس الرب والمسيح » (١٥) ، باعتراف عقيدة ، وبجياة مثالية ، وبالإشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (يرفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص (١٦) خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكنى يعملان فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحى واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد (١٧) ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنتشر علناً بين الناس » ، وأن كلمة الله الطاهرة هي الوحيدة ،
التي يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس (١٨) . والحكومة المثالية هي حكومة رجال
الدين ، ويجب أن نعتزف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني ، باعتبارها
صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب
بها لكنيستته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقي من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم
في لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقيين ، وبخاصة
مينيكا ، وبشيء لدراساته في القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على
القديس أوغسطين ، الذي استخلص القول بالجبر من القديس بولس ،
الذي لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب
بأنه أب محب رحيم ، ومر في هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب
المقدس ، التي افترضت حرية الإنسان في صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس
٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ،
٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة ، ولكن في
تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج
ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميماتها العملية بمنهج ،
يقوم على التشريع الكهنوتي . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار
بالإيمان ، ومن زونجلي التفسير الروحي للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء
المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع
عملي قوى ، باعتباره امتحاناً وشاهداً على الاختيار . ووصلت معظم تلك
العقائد في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي ، وأضنى عليها كالفن أهمية
شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتي .
ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول
أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كثيفة أكثر من قبل ،
وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفرن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا
مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا
الشمالية ، يبدو لأول نظرة سرّاً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى
لماذا حارب الكالفينيون والموجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه
الجرأة دفاعاً عن عبزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعبز البشر
فى تكوين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟
فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة
القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب
فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفرن نفسه خجولاً وقوى العزم فى الوقت
نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسلوى ،
إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجد « الحكم المروع » للجبر « أمراً يودى إلى
أبهج فائدة » (١٦) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن
فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس
من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح
الشجاعة لمواجهة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى
غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة بمائلة الشعب اليهودى من صيانة
نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . حقاً أن فكرة كالفرن
عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مديناً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ،
كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى
الاختيار الإلهى كانت درعاً يثبت الشجاعة فى قلوب الموجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفي قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئ مُقْسَم أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن بأن تقويمه قد هيأه له الله ، فإن في وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية ، وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل الصفوة ، سواء كانت معدمة أم لا ، أرستقراطية وراثية : فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله (٢٠) من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال الفردوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز صفقة رابحة .

وكان أتباع كالفن في حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة النظر السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست إلا وادياً للبؤس والدموع ، ورحب في اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذي اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ، كما أنه لم يكن هناك شيء يتنافى مع العقل في سلوك هؤلاء الذين كانوا ينوحون ويبيكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون في وقار عند تشييع جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم في الغالب الأغنياء وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود في نار جهنم (٢١) ، وكان ثمة شيء واحد يجعل الحياة محتملة - الأمل في سعادة مطردة بعد الموت ، وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منى ؟ وأليست الدنيا لحداً ، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ » (٢٢) وعلى النقيض من صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا في وصف تخيلات الجحيم ، ولكن في الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعاني الصفوة النقية ، دون أن تجأ بالشكوى ، كل ما في

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم . ذلك اليوم الذى يستقبل فيه الرب عباده المخلصين فى ممزكتة الوادعة ، ويخفف كل دمة تساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لحالاته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة فى سعادته » (٢٣) . ولعل هذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التمساء الذين ينتشرون فى بقاع الأرض . . .

٣ - جنيف وستراسبورج : ١٥٣٦ - ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » فى المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخصوع له (٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من الدوقة البروتستانتية رينيه ، زوجة الدوق أركول الثانى ، وابنة المرحوم لويس الثانى عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين فى فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل فى مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت فى جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت فى عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مآوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت فى عهد يوليوس قيصر ملتحى لطرق التجارة عند الجسر ، الذى يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب فى فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف فى العصور الوسطى لحكم أسقفها الرومى والدينى على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التي أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها في المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التي أعادها كالفن فيما بعد ، في الشكل الذي يساير المذهب البروتستانتي . وتحرر دوقات سافوى ، التي كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية في القرن الخامس عشر ، ورقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوى ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التي قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نفوذهم ، ورجعت كفة النخوة (٢٥) .

وفي لطاق هذا الحكم الكهنوتي الدوقي ، كونت العائلات الكبرى يجتنب مجلساً من ستمين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة في مقر الأسقف لكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الديني والاختصاص المدني ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التي تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف في ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعي أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجد الأسقف نفسه في حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دي بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير الساطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألماني Eidgenossen أي رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت » . ولا أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال في الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فيتنبرج مدينة تجارية ، تتوسط في التجارة بين سويسرة في الشمال وإيطاليا في الجنوب وفرنسا في الغرب . وألف الأوساط من أهالي مدينة جينيف مجلساً أكبر ، يتكون من مائتي عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذي أصبح الحاكم الحقيقي للبلدية ، وكان يزدري سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة في حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته في قصر شياون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشنت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسي ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الديني ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية في المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين .

وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو ويليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً في شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيغر ديتابل ، الذي أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزمّت فاريل ، لأنه لم يجد أى أثر في نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق بجول من مدينة إلى مدينة في فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلاً ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدنتان تبرقان في وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمات المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التي يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ في جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذي رأى أن يلقى « الكتاب اللوثري » في نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سمجات في رأسه ، وتلوث سترته بشيء من البصاق . وكسب إلى صفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بينر فيريه وأنطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبي ، مما دفع كل رجال الدين الكاثوليكية تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداس ، وإزالة كل التماثيل ومخلفات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالحنان ، وسيطر نظام أخلاقي صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الديني فقد نفوا من البلاد (٣٦) . تلك هي جنيف التي أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك في السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى في الشاب الصارم الفصيح . الذي يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذي تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الديني ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة . يقضيها في البحث العلمي والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلته التي تشبه طاعة نبي راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التي لم يتطرق إليها الوهن .

وأذن كالفن . ووافق المجلس ومشيخة الكنيسة ، وبدأ خدمته المدنية . دون التقييد بأي رسامة أخرى — بأن ألقى في كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس في كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الروماني .

وفي أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير في الجدل الشهير الذي كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتي ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، في هداية أهالي جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلاً من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب ، وفضلاً عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكمهن ملكة المانخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكي يستعيدا الأساس الديني لأخلاقيات مشمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقي ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس في يولييه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية — مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى الخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يدر منه للعقاب . وسجنّت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه الداعرة . وصفه المقامرون بالأغلال ، وسبق مقترفو الزنا في الشوارع إلى المنفى .

ولما كان أهالي جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان يقوم على نظام أخلاقي ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكية خفت من شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل الحديد من الواجبات ، ونظم الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ، لتحريرها من قساوستها المتزمتين . وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار إلى الوطنيون والكاثوليك الذين يمارسون شعيرتهم في الخفاء ، وحصل هذا الائتلاف في انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية في المجلس الكبير . وأبلغ المجلس الحديد التساوسة أن عليهم أن يتعدوا عن السياسة ، فتدد كالفن وفاريل بالمجلس ، ورفض أن يناولا العشاء الرباني حتى تتواء المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن خلع كاهن الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرها بمغادرة المدينة في خلال ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردها وسط مظاهر التهايل والابتهاج (٢٧) . ولبي فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم في حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكاري تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى شتراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع إلا للإمبراطور ، وتدير شئونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . ولكي يدبر أموره بمبلغ الأثنين وخمسين جيلدر (١٣٠٠ دولار) ، الذي كانت تدفعه له الكنيسة كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة لا تلائم في موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التى يشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المحبولين ، الذين يفنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذى يغربنى — أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحى » (٢٨) .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دى بور ، وهى أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات فى سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثيها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً فى بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينا كان يشقى فى شتراسبورج ، تحركت الأحداث فى جنيف . وتشجع الأسقف المنفى عند ما علم بطرد فاريل وكالفن . ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائته ، وقام بخطوة مبدئية . فأقنع اياكوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالى جنيف » . « يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعقيدة الكاثوليكية » (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلاً مهنياً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس فى كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل فى مدينة كارينتراس فيما بعد هراطقة والدانين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعزاء المحبوبين ، حكام جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتتألف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتى ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة يتزعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التى دامت قروناً طويلة ، وتساءل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عقيدة كاثوليكية أثمرتها خبرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . وختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة فى مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعدوه بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن فى جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف فى وجه عالم الإنسانيات المهذب ، أو يجاريه فى لاتيئته . وفى غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا لقرار العقيدة والنظام ، ونحيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدرّكاً للموقف ، فخف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلعه للدفاع عن الإصلاح الدينى . وواجه الدمائية بالطف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أنملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه فى النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصى ، فقد كان فى وسعه أن ينعم بالمزيد من الطائفة ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهى . ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التى كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكنائس البروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحلدة أبدية فى السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً ولعله أغفل الفضائل المعارضة لبابوات عصر النهضة ، إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من المجاملة ، وهو أمر نادر فى مناظرات هذا العهد .

وعند ما اطلع عليه لوثر فى فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضى تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلاً : « لشدة ما يطربنى أن يهين الله أناساً . . . يهون الحرب ، التى بلدتها ضد المناهض للمسيحية » (٢٩) . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠) ، وبدأ يتساءل ما إذا كان ، بنفيه كالفن ، قد فقد أقلد رجل في الإصلاح الديني السويسري .

وغدت الشك عوامل أخرى . فقد برهن كاهنا الأبرشية ، اللذان حلا محل فاريل وكالفن ، على أنهما لا يصلحان للوعظ ، وبنفتمان إلى النظام . وفقد الجمهور احترامه لهما ، وعاد إلى الأخلاق المنحلة ، التي كانت سائدة في الأيام السابقة للإصلاح الديني . وتفشيت المقامرة والسكر ، واشتدت الحلبة في الشوارع . وانتشر الزنا ، وكان الناس يرفعون عقائدهم علناً بالأغاني الداعرة . وانطلق أشخاص في الشوارع ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم (٣٠) . ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة ، الذين تزعموا حركة طرد فاريل وكالفن . وذلك لارتكابه جريمة قتل ، وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير . وعلى ثالث بتهمة الخيانة للوطن . أما الرابع فقد مات . وهو يحاول الفرار من الاعتقال . ولا بد أن رجال الأعمال ، الذين كانوا يسيطرون على المجلس . قد ساءهم هذا الإخلال بالنظام . باعتباره معوقاً للتجارة . ولم يكن المجلس نفسه ميالاً إلى أن يحل محله أسقف ، يستعبد سلطانه . وربما يصدر قراراً بجرمانهم من غفران الكنيسة . وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفن لغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً . وفي يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفي ، وأعلن أن فاريل وكالفن رجلا ن جديران بالاحترام . وأرسل مندوب لمر مندوب إلى شتراسبورج . لإقناع كالفن باستئناف عمله في الأبرشية بجينيف . وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل له دعوة مماثلة . وفي كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفن على العودة . ولكن كالفن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء في شتراسبورج . وشعر بأن عليه التزامات هناك ، ورأى أنه لن يجد أمامه في جينيف إلا الخصام ، وقال : « ليس في العالم مكان أخشاه أكثر منها » . ووافق على القيام بزيارة للمدينة فحسب . وعند ما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكريم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذات له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه في توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب في ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيته . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله أن يمنحنا بركته » (٣١) .

٤ - مدينة الله

كان سلوكه كالفن في السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فكسب إلى صفه الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدي القسس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينية في كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثني عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومديراً وأستاذاً للاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس ، ومستشاراً للمجالس البلدية ، وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية في الكنيسة . وعكف في غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتي من حيث القيمة بعد رسائل أرازاموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلاً ، ويأكل قليلاً ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكتب سيرته ، تيودور دى ميز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التي تناولها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة ، لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن . لصياغة قانون كنسى جديد . وفي اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التي لا تزال الكنائس التي تناولها الإصلاح والمشيخية في أوروبا وأمريكا تقبل معلمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيوخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ٥

وألف كهان الأبرشيات في جينيف « الجماعة المبعجلة » ، التي حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ في جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية — وتنصيب الأساقفة — كانت محظورة .

وأصبح القساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم في أي نظام للقساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك في الوقت الذي لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا النقوى الخارقة للقساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصلحوا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقي للدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن القساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين في المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، في هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعي أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فلان بعض الدعاوى الكنسية بحسن أن تترك مؤقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالي جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخة مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثني عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينما كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم في المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظلون في مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فإن مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين في أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وأدعى لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقي على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكي

يزوراً سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق في استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان في وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس في أن ينفي عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً في جنيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته في عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سوة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسائلته ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطع أحد أن ينجح في مقاومتها ولو أن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا حول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولاً العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن يحضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتكون في البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ في أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يحجى » « كان كالفن يلقى عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فليندبر . وإذا لم يقوم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات » (٣٢) . وليس لأحد أن يعنى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتنق عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى بابا ، في رفضه الفردية في العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها في جنيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جنيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب في إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار في رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التي يعاقب عليها القانون . وأصبحت الهرطقة من جديد إهانة للرب ، وخيانة للدولة ، وكل من تثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت الكاثوليكية التي بشرت بهذا الحكم على الهرطقة بدورها هرطقة .

وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين شخصاً . ونفي ستة وسبعون . بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا كما في أى مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام ، ولقد أرسل إلى سارية الإحراق في عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ، أربع عشرة سيدة ، قيل أنهن من الساحرات ، بتهمة إغرائهن للشيطان ، بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون (٣٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلاً بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك الأخلاقي ، ومثله في ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو رجل حازم قوى المراس ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن فضائله على لاهوته ، وتجل بالعار الكاثوليكية ، التي أثمرت حياة الزنوف والانحلال في روما ، أو تسامحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود الفقري للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها . من وحدة الفطرة البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذي قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون رجال الدين قدوة لغيرهم ، بسلوكهم وإدراكهم الحسى . ولهم أن يتزوجوا وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤسائهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ، يتلخص في أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين له في الحى ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والجلوس إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتروء على الحانات والرقص (الذى كان وقتذاك يعنف بالقبلات والأحضان) ، والأغاني الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط فى اللهو ، والبذخ فى العيش ، والتبذل فى اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به فى الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها فى الوجبة الواحدة . وكانت الحلى والخمرات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صفت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب (٣٤) . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيلات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين — الواردة فى التقويم الكاثوليكي ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت فى العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام فى السجن . لأنه أصر على تسمية ابنه كلود بدلا من أبراهام (٣٥) . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تناول عقيدة دينية خاطئة ، وألها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتاني وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة (٣٦) ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفى . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفى أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفى مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه (٣٧) . وفى عامى ١٥٥٨ — ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامى ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام فى ثمانية وخسين ، وكان التعداد الكلى لسكان مدينة جينيف وقتذاك حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة (٣٨) . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث فى كل مكان فى القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفني مدارس وأكاديمية ، وبحث في أرجاء أوروبا عن مدرسين للغات اللاتينية واليونانية والعبرية واللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى فرنسا وهولندا وسكوتلاندة وإنجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون من حية وإخلاص في آسيا ، وأرسلت مدينة جينيف في خلال أحد عشر عاماً (١٥٥٥ - ٦٦) ١٦١ مبعوثاً من أمثال هؤلاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن التقسيم الطبقي أمر طبيعي ، وأسبغ تشريع الحماية على الرتبة والمنصب ، بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة (٢٩) . كان على كل شخص أن يتقبل وضعه في المجتمع ، وأن يؤدي واجباته ، دون حسد لأنهم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل بالإحسان دون أى تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التي تقدم للتفريع عن الفقراء .

والتزم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال في النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتقد به ، ولعل ذلك هو الذى أسهم في تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتي الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ في تأكيد أهمية (٤٠) هذه العلاقة ، إذ كانت الرأسمالية قد نمت في فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيين قبل الإصلاح الديني إلى درجة أكبر مما حدث في جينيف مدينة كالفن . ورفض كالفن المذهب الفردي في الاقتصاديات كما رفضه في الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، في رأيه ليست الفرد الحر (الذى بدأ به أوثر ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التي ارتبط أعضاؤها بها بقانون حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجني فائدة إلا من تلك الأشياء ، التي تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلاً لا يتجزأ » (٤١) « ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة لجمع المال أو تكديسه بصورة جائزة » (٤٢) ، وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة (٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقته ، المحتكرين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وضم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأنواب (٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات (٤٥) .

ولإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعمل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلاً بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهىأ نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية ، مثل أنتورب وأمستردام ولندن وتوآن للدين الحديد ، الذى تقبل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضان الطبقات الوسطى ونما بنه وهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه التفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريحة : ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه . ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق ، لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الهوجنوت الفرنسيين وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جييف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى ، ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى ، وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم . بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى روتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جييف .

« إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زياً لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوقة . والخير جد وثير إلى جد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير ، ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغاني استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان » (٤٦) .

ولا تنفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مثوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التى تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام^(٤٧) . ومن بين من أدينوا بالزنى صهر^(٤٨) كالفن وابنة زوجته . ولكننا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فاليبتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فيتنبرج يثنى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : « عند ما كنت فى جنيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشوف إليه ما حيت . فى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل لجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستقصاءات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود . وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والقمار والترف والمشتاق والكراهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحي أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جنيف إلى الأبد^(٤٩) .

٥ - معارك كالفن

اتسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلاً صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قائمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجهه عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الحسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خنف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخلص مدقق وإرادة حازمة لا تنهر ولعلها إرادة للقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكويني اللاهوت البروتستانتي . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكونبرنيكوس ويتخلف عنه قليلاً (مثل لور) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته وخجله يحجب كبرياءه في باطنه وذله أمام الله أصبحت في بعض الأحيان عجرفة أمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن في وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهذه المرض وانحنى ظهره من كثرة العمل ولذا كان كثيراً ما كان يتم غيظاً وينفجر في نوبات من الفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن في غضبه » (٥٠) ولم يكن من فضائله المرح الذي كان حرياً بأن يخفف من يقينيته ولا الإحساس بالجمال الذي كان كفيلاً بأن يستقي الفن الكنسى . ومع ذلك فانه لم يكن مشاعباً لاتلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرفين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ في اعتدال . وكان في وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه (٥١) ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش في بساطة وبأكل قليلاً ، ويصوم دون أن يقصد التباهي ، ولا ينام إلا ست ساعات في اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة في مرتبه ولكنه سعى لكي يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك المهرطيق تكمن في هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدى أتباع مثله فإن مملكتي سوف تمتد من البحر إلى البحر » (٥٢) .

ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء ، وحاربهم بشدة وبلغه العصر الجدلية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنازير وبهايم منتنة (٥٣) - وهي نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينيين الرشيق من أسلوب لوثر الذي يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقد حدث يوم أن قاطع جيروم بولسليك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته في كنيسة القديس بطرس وندد بالعقيدة التي تقول بالجبر باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك وأتهمه بجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميلا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت في زيورخ وبازيل وbern دلت على أنها مبللة : فقد أوصت bern بالحرص في علاج المشكلات التي تدق على إدراك الإنسان — وهي نعمة جديدة في أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن «الكثيرين مستاءون مما تقول في كتابك القوانين حول الجبر ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك»^(٥٤) وتراضى المجلس على النفي (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا في النتيجة مناظرة كالفن مع جواليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلي وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر في القربان المقدس إلا بروحه وعد هذا «تجديداً من وحى الشيطان» ورأى أن المصلحين الدينيين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعضا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بالفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينيين في زيورخ وبازيل وbern إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فلمغهم كالفن بأنهم «قردة لوثر» وأبدى من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل — براندنبرج والبلاتينات وأجزاء من هس وبريمن وآنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التي خضعت الإصلاح الديني ، ولم ينقد باقي ألمانيا الشمالية من التحول عن العقيدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذي كان يتفق في الرأي سرّاً مع كالفن) وصعدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها في الإصلاح

الدينى . وكان كايلىوس سيكوندوس كوريو يلقى تعاليمه فى لوزان وبازيل . وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين — وفيهم كثير من الوثنيين — سوف يفوقون عدداً المعذبين فى نار جهنم بكثير . أما لايلىوس سوكينوس ، وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر فى زيورخ فقد درس اليونانية والعربية والعبرية لكى يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم كثيراً جداً ، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير . وأعرب عن شكه لكالفن الذى رد عليه بقدر الإمكان . ووافق سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد معارضاً تنفيذ حكم الإعدام فى سرفيتوس ، وكان من بين القائلين الذين وقفوا يدافعون عن التسامح الدينى فى ذلك العصر المحموم .

وفى دولة يمتزج فيها الدين والحكومة فى مزيج مسكر ، كان من الطبيعى أن تكون أشد المعارك التى خاضها كالفن هى معاركه مع الوطنيين والمتحررين والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفوا الآن لعودته . فقد استاء الوطنيون من أصله الفرنسى ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقايل ، وأطلقوا على كلاهم اسم كالفن . وسبوه فى الطرقات . ولعلهم هم الذين أطلقوا فى إحدى الليالى خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول بوحدة الوجود ، وتحلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو جنة عدن أو التكفير أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجریت ملكة نافار وأيدتهم فى بلاطها بنيراك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفى يوم ٢٧ يونيه عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على منبره وجاء فيه : منافق كبير إنك تحب أن تجنى أنت ورفقاؤك بالأمك إلا النذر اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالحرب فلن يعول أحد دون القضاء عليكم . واسرف تلعن الساعة التى تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد أن عانوا طويلاً . . . احذر فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذى كان قد قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثيرون إلى هذا الحد (٥٥) . . .

وقبض على جاك جريه ، وهو أحد كبار المتحررين ، إذا شتبه في أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك ببضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن ، ووجد في حجراته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف — ولا ندرى مدى ما في اعترافه عن صدق — بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفي يوم ٢٦ يوليو ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه (٥٦) .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفي ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يندق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمي فما زالت هنا بضع قطرات فهي اضربوا » وسحبت السيوف ولكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . وخاطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً أقنع كل الأطراف بمقد هدية . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته في نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فريه يقول : « إن أملى ضعيف في أن تستطيع الكنيسة أن تجدها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجال الدين يقومون بالخدمة الدينية . صدقني إن سلطاني يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . ولكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ - ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ - ٥٣

ولد ميغيل سرفيتوس في فيلانوفا (وتقع على بعد حوالي ستين ميلا من ساراقوسة) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ في عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر في إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقه في التأويلات اللاهوتية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث ولإبراهيم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشي » .

وفي تولوز حيث درس الثمانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملاً وأقسم ليقرأه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالرؤى في سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دي كويلثانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذته جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتيية وأحبها ، وزار أويكولامباديوس في بازيل ، كما زار كاييتو وبوسر في شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً في رأيهم ، ودعى لكي يرى في حقول أخرى .

ونشر في عامي ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثائي طبعة من مؤلفه De Trini- talis erroribus ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملاً مذهلاً بالنسبة لقى في العشرين من عمره بسبب ثرائها في سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع في نظر سرفيتوس رجلاً نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفواً للأب أو سرمدياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التي أرسل بها واحد من الأنبياء » (٥٧) ، وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين في القول بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلاً إنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد (٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور . وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتساق مع الالامعدانيين في أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفي يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش في تولوز أمراً بالقبض عليه . وفكر في السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك تذكر في شخصية ميشيل دي فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزيالوس العظيم زميانه في دراسة التشريح وأثنى أساتذتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه في مناظرة ولكنه لم يظهر في المكان والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن في الفترة التي اشتد فيها الغضب على خطاب كروب والإعلانات الكبيرة الهرطيقية .

وفي ليون أشرف على نشر طبعة جديدة بعالم من جغرافية بطليموس ، وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلاً جنوبي ليون) ، وهناك عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشغل بالبحث . واختير من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيحت للناشرين في ليون التعامل معهم لكي يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجيني .

وقضى في هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفي آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذى كان جيروم قد جعلها « عذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعنى عذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير لإشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى في العهد القديم التى تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندرى متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية — مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوى إلى الرئتين وتدفقه خلالها وتنقيته هناك بالتعريض للهواء ، وعودته فى الوريد الرئوى إلى الغرفة اليسرى من القلب ، ويقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عند ما أدرجه فى مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية فى رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية فى الإنسان ، ومن ثم يعد — ربما أكثر من القاب أو المخ — المقر الحقيقى للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر فى مشكاة أسبقية سرفيتوس فى هذا الاكتشاف فحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكل رسالته « إعادة المسيحية » فى سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل فى ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذى كتب شريعة الدين المسيحى ، بيد أن الكتاب إلى جانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قادر على أرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة : وطن كالفن أنه يكفيه الكى يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب «القوانين» ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة^(٥٩) ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لي سرفيتوس مجلداً مطولاً بأقواله الحارفة . وإذا وافقت فلن يتردد في الحضور هنا ، ولكنني لن أعطيه كلمة مني لأنه إذا جاء فلنني لن أطيق أن أتركه يخرج حياً إذا كان هذا في سلطتي^(٦٠) ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آيل بوبان ، وهو أحد قساوسة جنيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلاً من الرب عبدتم^(*) سريروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حليماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال الإرادة المستعبدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء في وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم عليكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى في معركة ميكائيل هذه أعلم أنني سوف أموت لا محالة . . . بيد أنني لن أردد . . . أن المسيح آت ولا ريب . ولن يتمهل^(٦١) .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خيلاً من المتوسط في عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالي جنيف على السواء ، وأنه وقد سمى باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت في تلك الحرب^(٦٢) . وكان كتاب «الإعادة Restitutio» دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة في العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشرون في بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتأزار

(*) كائن خرافي .

أرنوييه وجيوم جيروه في الخفاء بمدينة فين . ولم تذكر أسمائهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف . ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلّف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلاً منقحاً من كتاب « De Trinitatis erroribus » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب في جنيف بجانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة في يدي جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م . س . ف . هي الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى في يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكي في ليون يدعى أنطوان أرنى أعرب له فيها عن دهشته من أن الكاردينال فرانسوا دى تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا في دائرة أسقفية . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش في ليون أوفين . وعرض أرنى الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش في ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجيرون نائب محافظ فين للبحث والاستقصاء . وفي يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجيرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلّف كل الأوراق التي تثبت ذنبه . وأذكر أنه أُلّف الكتاب . فأرسل أرنى إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التي أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة في الكتاب . وقبض على سرفيتوس في اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقنطرة فوق سور حديقة . وفي يوم ١٧ يونيه أدانته المحكمة المدنية في فين وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطينة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس بضرب على غير هدى في أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولي وأن يذهب عن طريق جنيف ، وظل في جنيف

شهراً لأسباب غير معروفة متخذ اسماً مستعاراً ، وفي غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكي يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل في خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منهى العنف دفاعاً عن خزعاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البريء ألا ينجح الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة في الدفاع عن الحق الذي لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه في التقسوة والفظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل في قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمل الذي أغار على زنزانته . وسمح له بورق وحبر وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بتلم الآباء الأوائل . وأدبرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام في ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتشهد بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجذب بينما وصفها الكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل^(٦٣) . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هي أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاً بأنه « طعن في شخص السيد كالفن العقائد التي فرضها الإنجيل كنيسة جينيف »^(٦٤) ، وفي يومي ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه في قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدة الوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتي في جينيف من القضاة الكاثوليك في فيين إبداء

آرائهم في فقرات خاصة من الاتهامات التي وجهت هناك ضد سرفيتوس . ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسي ، فرد سرفيتوس بأن الفتق قد حوله منذ زمن بعيد إلى عنين ومنعه من الزواج (٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان قد حضر القداس في فين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون محكمة مدنية ولاية في الفصل في قضايا الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جيليف وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه في الدفاع عن نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلها عنها إلى مدينة جيليف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذي صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفي اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن — هما آمي بيران وفيلبرت برتلييه — بأن ينضما إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ، فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتها ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة الكنائس الأخرى في سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ، وفي اليوم الثاني من سبتمبر واجهت زعامة كالفن في المدينة تحدياً في المجلس على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجهه العاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة المعارضة الواضحة في إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن المدعى الرئيسي في المحاكمة كان كلود ريجوه Rigot وهو من المتحررين (٦٦) .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على الاتهامات الثمانية والثلاثين التي وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبثمرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال ردها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن في التدخل في المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفك الدماء^(٦٧) . فرد عليه كالفن في ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شتى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب في السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلى قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة دجبت بأسلوب العصر ، فزاه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب التمر أنفه » و « السافل الغادر »^(٦٨) يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى »^(٦٩) . واتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يجمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب ،

وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها إبداء المشورة ، فرأت كلها إدانة سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها لإعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه فى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفى اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء ، واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة — مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عند ما سمع النطق بالحكم « أن وتأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزجر قائلاً بالإسبانية *Misericordia ! Misericordia !* ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحق إذا سحب هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب ولكن فاريل الطاعن في السن ، الذي يقترب من حافة انقهر زجره لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .
ونفذ الحكم في صباح اليوم التالى يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل تشامبل الذى يقع مباشرة جنوبى مدينة نينيف . وفى الطريق ألح فاريل على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابته الرجل المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق الموت ، وإبتل إلى الله أن يغفر لمن آثموه » (٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل حديدية وربط إلى جانبيه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وجهه صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ — دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت في الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس (*) . وأعرب ميلانكون في خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن «حمده لابن الرب » لـ « معاقبة الرجل الكافر » ووصفه عملية الإحراق بأنها « مثال يدل على الورع لا ينسى لكل الأجيال القادمة » (٧٢) . وأعلن بوسر من فوق منبره في شتراسبورج أن سرفيتوس قد استحق أن تنزع ألباؤه ويمزق لإرباباً (٧٣) . ووافق بولينجر ، وهو بوجه عام خير رقيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا بالموت من يثبت عليه الكفر (٧٤) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى في أيام كالفن ، فقد نظم صقلى قصيدة طويلة بعنوان : *De iniusto Serveti incendio* ، ونشر دافيسد جوريس البازيلي ، وهو لا محملانى ، احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، بيد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) في سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكارى لسرفيتوس في تشامبل وكان في أول قائمة الذين شاركوا في نفقاته المجمع الدينى لكنيسة جينيف التى أخذت بمبادئ الإصلاح الدينى (٧٥) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت جثته بعد الدفن وأحرقت علناً (١٥٦٦). وبالطبع أذان خصوم كالفن السياسيون معاملته لسرفيتوس واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً للكاثوليك في فرنسا على تطبيق عقوبة الإعدام على الموحنوت . ولا بد أن هذا النقد قد انتشر انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر في فبراير عام ١٥٥٤ *a Defensio orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigiosos errores Michaelis Servetir* دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس ضد أخطاء ميكايل سرفيتوس القبطية . وقال : إذا آمننا بأن الكتاب المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن على السلطة المدنية أن تعاقب المراطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك لأن القتل الممدود يؤدي إلى هلاك الجسد فحسب بينما المراطقة المقبولة تعرض الروح للعذاب الأبدي في نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك) وفضلاً عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل المراطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق العقيدة الخالصة التي كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسنن سفر اثنية القاسية ١٣ : ٥ - ١٥ و ١٧ : ٢ - ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها بلاغة ملتبة حقاً : « كل من يتمسك بأن المراطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقبتهم يورط نفسه بأن يكون شريكاً لهم في جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان فالرب هو الذي يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها في الكنيسة إلى يوم القيامة . فلماذا يطلب منا مثل هذه التسوية الشديدة إذا لم يكن هذا ليرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا ننزع عبادته تعالى فوق أى اعتبار إنساني بحيث لا نبقى على آصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن ننسى كل إنسانية عنده ما يكون الأمر متعلقاً بالقتال في سبيل مجده تعالى؟ (٢٦٦)

وخنفت كالفن من استنتاجاته بأن فصيح بالرحمة بالذين لا تكون
هرطقاتهم جوهريّة أز الدين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف
المحل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالتقليد بولس هادياً له ومرشداً
فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبة إلى بولس) التي تعلن أن الثمانون
الجلد يحل محل الثمانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التي كان
من المراضح أنه كان يمكن أن تتعظم وتشيع فيها الموضوع إذا سمحت الخلافات
في العقيدة بإبداء الرأي علناً .

وفي غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازية التي تدعو إلى التسامح ؟
لقد كان أرازموس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون
فقد تخليا عن التسامح عند ما تدرجا في اليقين ، وأما كالفن فكان لا يكون على
يقين مذ بلغ عامه العشرين بتبكيير قائل في النصيح . وليس من شك في أن
قليلاً من علماء الإنسانيات الذين درسوا الفكر الكلاسي والذين لم يهابوا
العودة إلى الخطيرة الرومانية بالاشمئزاز من الالتجاء إلى العنف في النزاع
اللاهوتي ظاوا يرون على استحياء أن اليقين في الدين والفلسفة أمر لا يمكن
الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلسفة ألا
يقتلوا أحداً .

وكان عالم الإنسانيات الذي تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح
وسط صدام الميقيديات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن .
فسباسيان كاستيليو الذي ولد في جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً
للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية في ليون وعاش مع كالفن
في شتراسبورج فعينه مديراً للمدرسة اللاتينية في جينييف (عام ١٥٤١) وهناك
شرع في ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب
بكالفن رجلاً ولكنه كره المذهب القائل بالخبر وأضنى قواه تحت وطأة
النظام الجدي الذي خضع له الجسد والعقل . واتهم في عام ١٥٤٤
القساوسة في جينييف بالتعصب والدنس والسكر . واشتهى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستيليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ، وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يحول أسرة كبيرة ، وكان يحمل أثناء الليل في إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام ١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى في سنن التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى في هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً (١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية في جامعة بازيل . وأحسن بالعطف على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكاميلوس كوريو بأسماء مستعارة (مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل يجب أن يضطهد المراطقة ؟ De haereticis an Sint persequendi »

وكان الهيكل الرئيسي للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من الابتهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتوس وجيروم إلى أرازموس ولوثر في بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو في الجدل بالمقدمة والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا في مدة مائة عام الإرادة الحرة والجبر والسماء والجحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا إلى أى اتفاق ، ومن يدري لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو : لا داعى لأى اتفاق ، فمثل هذه التفضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية وأن نطعم الفمراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدلاً من أن السخرية أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها في هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على حق مطلق ، وأن تذكره من لها عليهم السيطرة البدنية على اعتناق عقائدها ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة في مدينة ويصبح هرطيقاً عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقله عند كل حد من حدود البلاد . وهل يمكن أن نتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعذيب الباطنيين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التي تدعو إلى القضاء على الحياة كل طريق شريعة المسيح التي تدعو إلى الرحمة لا إلى اليأس والإرهاب وإذا أنكر إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغي ألا يقتل . وفضلاً عن هذا فإن اضطهاد العقائد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد في سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان في وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . ونختم كلامه بقوله أية مأساة في أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدون سرياً في طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمري بعد فجر واعده مثل هذا (٧٧) .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطئه في رسالته « المراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكي تلاميذه تيودور دي بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور في فيزيلي من أسرة أرسقراطية ، ودرس القانون في أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح في باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مريحة وتزوج وسقط صريع مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولاً معكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كتائفن وعين أستاذاً لليونانية في جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتيّاً من فرنسا التي تضطهد الموحنوت أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ، فأصدر في سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين في عقاب المراطقة) *De haereticis a civili magistratu puniendis libellus* وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الديني مستحيل لإنسان قبل أن الكتب المقدسة وحى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبى العقيدة الدينية التى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها — إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر — اكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى — والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون المؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما الديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حتماً إن العهد الجديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتص من اللصوص والقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى الجدل فى كراسة دينية بعنوان : *Contra libelum Calivini* ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديهارت فى مخطوطة أخرى بعنوان *De arte dubitandi* بأن يجعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المحاورات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية التى كانت تحتاج فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس » (٢٨) ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشذ عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالنن إن وفاته المبكرة حكم عادل من إله عادل .

٨ — كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ — ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفى إلى مذهب الموحدين — الإيمان بإله ليس ثلاثة فى واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى فى هذا الشك الأساسى بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه الطريقة أكثر من أى شىء آخر لأنه وجدها متفشية فى مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شىء بين اللاهثين البروتستانت الفارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسده لا يصدق قدراً محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم المدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله . وكان لماثيو جريبالدى ، وهو أستاذ فى فقه القانون فى بادوا ، بيت صينى بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة — بالنسبة للجميع ، فدعى للشول أمام المحاسن ، ونفى من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكفيل لنفسه التعيين فى وظيفة أستاذ للقانون فى جامعة تيبينجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كرامة عن شكوك جريبالدى . فالزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث ، وبدلاً من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأزراً بداء الطاعون فى عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندرانا ، وهو طبيب إيطالى يقيم فى مدينة جينيف للشول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولندة حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جينيتلى ، من كالابريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى مدينة جينيف ، فألقى فى غيابة السجن حكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عند ما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن في دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاندراتا في بولنדה ، وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الخنث بقسمه والمرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك في سبيل الرب استمر كالفن يعيش في بساطة وقد حكم جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوامر أتباعه . وتدعم مركزه بمرور السنين . وكان ضعفه الوحيد في جسده الواهن : كان يشكو من آلام في رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والقرص ، وهضرت الحمى جسده وأبرزت عظامه وشكلت وجهه فبدت تقاطيعه مشدودة تم على القسوة والكدر . وأصيب بمرض في ١٥٥٨ — ٥٩ استمر طويلاً وتركه ضعيفاً واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر في الدراسة والتوجيه والوعظ حتى عند ما كان يحمل حملاً في مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته في يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للمجد الأبدي ، وفي اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سوررات غضبه ، ورجاهم أن يتشبثوا بالعقيدة الطاهرة للكنيسة التي اتبعت الإصلاح وجاء فاريل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع الأخير . وبعد مرور بضعة أيام قضاها كالفن في الصلاة والعذاب وجد السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثير لوثر ، ولكنه سار في طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية رباطاً وثيقاً بالأصول التيوتونية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد لكي يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان الدين بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت.

البروتستانتية في سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية في هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية في كثير من البلاد تعظيماً وثقة واعتزازاً بالنفس ، مكنتها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينيوس تلميذ ميلانكتون في إعداد وعظ هيدلبرج الذي أصبح تعبيراً مقبولاً لعقيدة الإصلاح الديني في ألمانيا وهولندة . ووفق بيز وبولينجر بين مذهبي كالفن وزونجلي في الإقرار السويسري البروتستانتي الثاني (١٥٦٦) الذي أصبح وثيقة رسمية للكنائس التي اتبعت الإصلاح الديني في سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن في جينيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس في مقاومة محاولات تجمع الكرادلة والجمعية المبهجة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاقي في العمليات الاقتصادية ، وبعد وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة في جينيف مزاياه الإدارية - - (التوجيهية) التي كان كالفن قد ظفر بها لها في الشئون غير الدينية . وفي القرن الثامن عشر خفف تأثير فولنير من التقليد الكالفيني ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية في سبيل وصبر لتسترد مكانها في المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدور ونزعة أخلاقية سخالية من الصرامة ، وكان ٤٢ في المائة من السكان في عام ١٥٩٤ كاثوليك و ٤٧ في المائة منهم بروتستانت (٧٩) .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير في جينيف هو النصب التذكاري للإصلاح الديني « المبعجل الذي يمتد في بهاء على طول سور بستان ويحتفل بانتصارات البروتستانتية وترتفع في وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية » .

وفى غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التى أقامها كالفرن
تثبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين فى سبيل توفير التعليم
للجميع وتثقيهم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء
فى هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسبانى الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال
الدين فى سكوتلنده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للنزعة الرواقية
فى عقيدة صارمة الفضل فى خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين
والمطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج فى نيوانجلاند ، وثبتت قلب كرومويل
واهتدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين .
وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم
والحكم الذاتى إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم
حق اختيار حكامهم وأصبحت جماعة المصلين التى تحكم نفسها بنفسها بلدية
تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهى نفسها فى
صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التى تقول
بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعى إلى أوربا بعد حرب الثلاثين عاماً وفى
انجلترا بعد ثورتى عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفى أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير
الفخر بالانتخاب الإلهى إلى اعتزاز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم
أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت التسوة المذعورة التى ولدت رب كالفرن إلى رؤية
أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر فى مفهوم الألوهية . وعقداً بعد عقد نبذت
الكنائس التى تسلمت زمام القيادة من كالفرن عناصر عقيدته القاسية ،
وواتت الجراة المشتغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا فى

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس ميجل دون أن يسبب أى اضطراب
أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً » (٨٠) . ونحن نشعر بالشكر
لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا
سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية
بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل الميجل
بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformation*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson, W., *Charles V*, 1, 372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luthér, *Works*, I, 26; Thesis 75.
6. Beard, *Luther*, 267.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121; Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M.C., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 158.
13. Beard, 165.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvii, in Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Ganss, H. O., in *Cath. En.*, IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. *Ibid.*, 89.
18. *Cath. En.*, IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. *Cath. En.*, IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe, Wm., *Leo X*, II, 95, 105-7.
25. Pastor, VII, 367.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. *Ibid.*, 278-4; Ranke, 195; *Cath. En.*, IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 382; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 56.
33. *Cath. En.*, IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20, 1581, in Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melancthon*, 88.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Ritten*, 263.
39. In Pastor, VII, 389; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, in Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 63.
44. *Ibid.*, 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, *Italica* mine.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, in *Works*, II, 188.
51. *Ibid.*, 257.
52. In Janssen, III, 128.
53. *Works*, II, 269-71.
54. *Ibid.*, 298.

55. 302-10.
56. 299.
57. 331.
58. 318.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-8; Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*, 331.
62. Adams, Brooks, *Civilization and Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Janssen, III, 173.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *History of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton, *Here I Stand*, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 421-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Bainton, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaft, *German Reformation*, 29.
77. Bainton. *Here I Stand*, 185; of Cath. En. IX, 446d, and the Protestant authors there cited.
78. Creighton, *History of the Papacy*, VI, 176.
79. Carlyle, Thos., *Heroes and Hero Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Stand*, 186.
81. Acton, 101.
82. Bainton, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, H. O., *Thought, and Expression in the 16th Century*, II, 213.
85. Bax, *German Society*, 142; Lecky, *History of Rationalism*, I, 22.
86. Janssen, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 305-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254.
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard, 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talk*, 118.
104. *Werke* (Walch), VIII, 2042, in Beard, *The Reformation of the 16th Century in Relation to Modern Thought and Knowledge*, 161.
105. Luther's *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI, 142-8, in Maritain, *Three Reformers*, 38 and Beard, *Reformation* 156.
107. In Paulsen, *German Education*, 47.
108. In Janssen, III, 240.
109. Schaft, *German Reformation*, 85-6.
110. Luther, *T.T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T.T.*, 2.
113. Ibid., 91, 96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
118. Sermon of March 6, 1521; Janssen, XII, 316.
119. Maritain *Three Reformers*, 80.
120. Smith, *Reformation*, 653.
121. Lecky, *Rationalism*, I 22.
122. *T.T.* 577, 597; Janssen, XIV, 87.
123. Janssen, XII, 817.
124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
125. *T.T.*, 579-86, 61.
126. Luther's *Works*, III, 235-7.
127. *Works*, II, 391.
128. *Ibid.*, 316.
129. *T.T.*, 283.
130. Romans, x, 9.
131. Mark, xvi, 16.
132. *Works*, II, 816.
133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330, 142, 130; *Werke* (Erlangen), XVIII, 260.
134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX, 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
135. O'Brien, G., *Economic Effects of the Reformation*, 41.
136. *Works*, II, 328-9.
137. *Ibid.*, 331.
138. Romans, ix, 18.
139. Luther, *De servo arbitrio*, in Janssen, IV, 104.
140. *De servo arbitrio*, in Lecky, *Rationalism*, I, 140.
141. In Füllöp - Miller, R., *Saints That Moved the World*, 291.
142. Janssen, IV, IV, 114.
143. *T.T.*, 96.
144. *Ibid.*, 178.
145. *Works*, II, 188.
146. *Werke*, XXVIII, 142-201. In Bax, *German Society*, 188-90.
147. *Works*, III, 253-61.

148. In Janssen, III, 268.
149. In Allen, J. W., *Political Thought*, 380.
150. *Works*, IV, 25.
151. *Ibid.*, 26, 29.
152. *Works*, II, 160.
153. *Ibid.*, IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechart. E., *German Civilization*, 260.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*, 84-5.
5. Richard, 260; *Camb. Mod. Hy*, II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janssen, III, 221; Schapiro, 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod. Hy*, II, 177.
10. Janssen, III, 342.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 198.
12. Kautsky, 116-119.
13. *Ibid.*, 121.
14. 180.
15. Ranke, *Reformation*, 838.
16. In Kautsky, 139.
17. *Ibid.*, 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. *Ibid.*, 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants' War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in European Hy*, 2891; Bax, *Peasants' War*, 156-60.

- . Ranke, 344.
- 27. Bax, *Peasants' War*, 101.
- 28. Ibid., 118-30.
- 29. In Janssen, IV, 208.
- 30. Bax, 76, 224.
- 31. Ibid., 205.
- 32. 229.
- 33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
- 34. Bax, 265 6.
- 35. Ibid., 312-5.
- 36. 303.
- 37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
- 38. Bax., 836-7.
- 39. Armstrong, *Charles*, V, 1, 222.
- 40. Ranke, 360.
- 41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
- 42. Ibid., 165.
- 43. 164.
- 44. *Works*, IV, 261.
- 45. Ibid., 261-72.
- 46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
- 47. Ranke, 728.
- 48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
- 49. Kautsky, 164.
- 50. Ibid., 166.
- 51. Allen, *Political Thought* 48.
- 52. Ranke, 732-3.
- 53. Schaff, *Swiss, Reformation*, 82.
- 54. Janssen, IV, 114.
- 55. Kautsky, 176.
- 56. Ibid., 185.
- 57. 187.
- 58. Ranke, 729.
- 59. Kautsky, 193.
- 60. Ranke, 757.
- 61. Kautsky, 255-6.
- 62. Ibid., 257.
- 63. 260.
- 64. 273.
- 65. Ranke, 745-6.
- 66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.

- 67. Kanteke, 299; Ranke, 755.
- 68. Smithson, 181.
- 69. Fosdick, *Great, Voices of the Reformation*, 285.
- 70. Payne, *Anabaptists*, 16.

CHAPTER XVII

- 1. Cath. En., XV, 773.
- 2. Schaff, *Swiss, Ref.*, 6.
- 3. Ibid.
- 4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
- 5. Schaff, 24.
- 6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
- 7. Schaff, 32.
- 8. Ranke, 513.
- 9. Schaff, 52-3 .
- 10. Fosdick, 183.
- 11. Ibid., 173, 191.
- 12. Lea, *Auricular Confession*, 1, 519.
- 13. Fosdick, 190.
- 14. Schaff, 59.
- 15. *Camb. Mod. Hy*, II, 321, 334.
- 16. Smith, *Erasmus*, 801.
- 17. Schaff, 94.
- 18. Brinton, *Hunted Heretic*, 36-8.
- 19. Erasmus, Epistle of May 9, 1529,
in Schaff, *Swiss Reformation*, 112.
- 20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
- 21. In Janssen, V, 231.
- 22. Schaff, 177.
- 23. ibid.
- 24. Bossuet, *Variations*, II, 29.
- 25. En. Brit., XXIII, 998.
- 26. Schaff, 188.
- 27. Smith, *Luther*, 290.
- 28. T. T., 801.

CHAPTER XIX

- 1. Kauffman Collection, Berlin.
- 2. *Werke*, XLII, 582, in Maritain, 171.
- 3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. *Ibid.*, 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton, *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 731.
12. *Ibid.*, 751.
13. In Schaff, *Swiss Reformation*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Luther*, 354.
16. Schaff, *German Reformation*, 465.
17. Bainton, 804.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.‡
20. Luther, *Works*, I, 7.
21. Janssen, XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, in Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
26. *T.T.*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquer, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 355.
32. *Ibid.*, 326.
33. In Janssen, XI, 253.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. *Ibid.*, 349.
38. *Ibid.*,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. *bid.*, 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. *Ibid.*, 413.
46. Luther, *Works*, I, 76.
47. *bid.*, 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen).XXXII, 217-33, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 15.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos, Meisch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus,‡ 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60. *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI, in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. *Id.*, *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 366.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, *Commentary on Psalm LXXXII*.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46-63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssen, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. T.T., 389.
75. Smith, *Reformation*, 104; Pansky, Dürer, 1283; Cath. En., IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. Ibid., 342.
78. Robertson, [J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirkheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Hutten*, 280.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. Ibid., 221.
90. Ibid., 22; Froude, *Erasmus*, 283-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. Ibid., 256.
95. Erasmus, *Epistles*, I, ep. lxxxv.
96. Ibid., ep. cccixvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb., 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. Ibid.,
101. Balaton, *Here I Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 381.
103. In Allen, *Political Thought*, 80.
104. Froude, 408.
105. Ibid., 357.

106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. Cf. *Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Celibacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. Id., IV, 47.
8. Id., IX, 180.
9. Id., XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 387.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. Ibid., 109-11.
14. En. Brit., XI, 288.
15. Janssen, V, 271; Ranke, 614.
16. Cath. En., XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy*, II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 862-3.
22. Ibid., 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. Ibid., 188.
25. Cath. En., IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I Stand*, 346.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 809.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in Cath. En., IX, 456d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 351.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 352.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Janssen, VI, 81-6.
40. *Comb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 215f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 216f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 405.
48. *Ibid.*, 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. *Ibid.*
51. *T.T.*, 638.
52. *Ibid.*, 15.
53. 19.
54. 235.
55. In Robertson, *Charles V*, II, 158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 270.
59. *Ibid.*, 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. *Id.*, VII, 139.
62. *Id.*, IV, 862-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 161.
64. In Janssen, VII, 139.

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس

صفحة

الكتاب الثانى

الثورة الدينية

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل السادس عشر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا (١٥١٧ - ١٥٢٤) . ٣

١ - تيتزل ٣

٢ - تكوين لوثر ٩

٣ - الثورة تتخذ شكلا ١٦

٤ - نشرات بابوية ماثمة ٢٧

٥ - المجلس النيابى فى ورمس ٣٥

٦ - الراديكاليون ٤٤

٧ - أسس الإيمان ٥٢

٨ - لاهوت لوثر ٥٨

٩ - الثورى ٦٧

الفصل السابع عشر : الثورة الاجتماعية (١٥٢٢ - ١٥٣٦) . . . ٧٢

١ - الثورة الصاعدة ٧٢

٢ - حرب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦) ٧٥

٣ - اللامعبدانيون يحربون الشيوعية (١٥٣٤ - ١٥٣٦) . . . ٩٦

الفصل الثامن عشر : زونجلى - الإصلاح الدينى فى سويسرة

(١٤٧٧ - ١٥٣١) ١١٠

١ - كثير فى القليل ١١٠

٢ - زونجلى ١١٢

٣ - إصلاح زونجلى الدينى ١١٥

صفحة

- ٤ - إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون ١٢٢
- الفصل التاسع عشر : لوثر وأرازموس (١٥١٧ - ١٥٣٦) ١٣٠
- ١ - لوثر ١٣٠
- ٢ - المطرطقة المتعصبون ١٤٠
- ٣ - العلماء الإنسانيون والإصلاح الديني ١٤٧
- ٤ - أرازموس - حاشية على آرائه (١٥١٧ - ٣٦) ١٥٢
- الفصل العشرون : العقائد في حرب (١٥٢٥ - ١٥٦٠) ١٧٠
- ١ - التقديم البروتستانتي (١٥٢٥ - ٣٠) ١٧٠
- ٢ - مجالس الدايت لا توافق (١٥٢٦ - ٤١) ١٧٦
- ٣ - أسد فيتنبرج (١٥٣٦ - ٤٦) ١٨٦
- ٤ - انتصار البروتستانتية (١٥٤٢ - ٥٥) ١٩٦
- الفصل الحادى والعشرون : جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) ٢٠٥
- ١ - شبابه ٢٠٥
- ٢ - عالم اللاهوت ٢٠٨
- ٣ - جينيف وستراسبورج (١٥٣٦ - ٤١) ٢١٨
- ٤ - مدينة الله ٢٢٧
- ٥ - معارك كالفن ٢٣٥
- ٦ - ميكائيل سرفيتوس (١٥١١ - ٥٣) ٢٤٠
- ٧ - دعوة للتسامح ٢٤٨
- ٨ - كالفن إلى النهاية (١٥٥٤ - ١٥٦٤) ٢٥٤